رواية

الصفصاف والآس

سلوى بكر

بكر، سلوى.

الصــفــصـــاف والآس: رواية/ سلوى بكر. ـــ

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٩٦ص ؛ ٢٠سم .

تدمك ٠ ٦٩٠ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية ـ مصر.

أ ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٣٤٠/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 690 - 0

ديوى ٨١٣

الصفصاف والآس

رواية

سلوى بكر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

الإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

غريبة بشكل

مطيورة وراكبنى جن، لا أرسى على حال. أشعر وكأن بجسدى أمواج هادرة وبراكين ثائرة. الحركة تمتطينى فأروح وأجىء، أطلع وأنزل السلالم معظم الوقت. أنتقل بين حجرات الحريم الكثيرة، أشتغل مع الخدم والعبيد، فأشيل وأحط الحاجات. دون أن يطلب أحد منى ذلك. فرحى وسعدى هو الخروج للسوق، أى سوق. الخياطين. البذورية. الحلاونيين، أروح للأسواق بصحبة الخدم والفراشين، فأجادل وأناهض فى الأسعار. أمى ترانى ميلة بختها فى البنات، فأنا سمراء. نحيلة. طويلة. ممصوصة كعود قصب. تنهرنى دومًا: اثبتى واعقلى. أصبحت فى ديوان النساء وكبرت. تجبرنى منذ فترة على التهام الطعام رغمًا عنى، وتزغّطنى كما يزغّطون البط ويسمّنونه لذبحه فى مولد من الموالد. تطعمنى يوميًا وبالقسر فرخة عتقية محمّرة فى السمن. وتوقظنى من أحلاها نومة فى عز الليل لأبلع لبابة رغيف حوارى أبيض كامل مع سطل ماء كبير، حتى أنفش وأربرب فيمتلأ ردفى ويكبُر صدرى،

وأسمن فينشد جلدى ويفتح لونى الأسمر، فيجود الزمان علىَّ برجل أعجبه فيتزوجنى، فلقد بلغت السادسة عشر وفشلت أمى فى وضعى ببيت العَدَل، رغم ما دفعته وبذلته من مال للدلالات والخاطبات والمزينات ليجتهدن ويأتين لى برجل، حتى لو كان متزوجًا قبلى بواحدة أو اثنين.

حزينة أمى لأنها تظن أننى بدأت العنوسة بعد بلوغى هذا العمر، أقرانى من البنات تزوجت بعضهن من سنين، وأنجبن طفل وربما اثنين. أنا لا أعبأ بكل هذا ولا أشعر بالغيرة من بنات خالاتى وعمومتى اللواتى تزوجن قبلى. أنا أحب اللعب. الجرى. الخروج. أن أسافر وأطير كالفراشات التى تحلّق على الزرع ببستان بيتنا، وأطاردها بينما أضحك مبتهجة بألوانها المبهرة.

أموال أبى وأراضيه وأطيانه، وحسبه ونسبه الواصل حتى سيدنا أبو بكر، لم تشفع لى مع عصعصتى وسمارى، فلم يتقدم لخطبتى أحد. بالليل وبعد لبابة العيش والمياه التى أتجرّعها كمنقوع سم، وبعد أن يروح النوم من عينى وتفسد لذته، أتسلل بعد خروج أمى، فأقوم من مرقدى، وقد فشلت فى استدعاء النعاس مرة أخرى بالتثاؤب والتقلب والتمطّى، فآخذ فى الدوران والرقص، وأنا أتوهّم ألحانًا وأسمع أنغامًا ودق طبول ومزاهر وطارات. أغنى لنفسى بصوت خفيض بينما أرقص، أردد أغانى العوالم اللواتى تجلبهن أمى للطرب فى الحريم، أو ما تقوله الغوازى حين أراهن بالأسواق، فمرة أقول: -

قوام حبيبى مايس

وجفن عينه ناعس

ما أحلاه فى الملابس

والله جميل تياه.

ومرة أخرى أدندن بموشح من الموشّحات أو دور من الأدوار كالذى سمعت العالمة طَلب تغنيه ويقول:

شجنى يفوق على الشجون

يامايسًا فضح الغصون

وصل الحبيب متى يكون

لمتيم قلق الجفون

قسمًا به وحياته

وبما حواه من الفنون

إن زارنى متسترًا

قرت بزورته العيون.

يُخيّل إلىّ أحيانًا أن الجن هو الذى يدفعنى لكل ذلك، فيهيئ لى أنى أسمع ألحانًا وأمتطى أنغامًا، وينفلت جسدى بالحركات وأتمايل مع العزف والنغمات، فأظل أرقص وأرقص وحدى فى ظلمة الليل، والقناديل كلها مطفأة. أحيانًا. أحل ضفائرى أثناء ذلك، وأترك شعرى الأسود الغزير، ينسدل كعباءة مفرودة على ظهرى. أتمايل.

أطوحه. انطره بعيدًا عن وجهى وأنا أتقصّع محركة رقبتى، نازعة إياها مرّات ذات اليمين، وذات اليسار. مرة بعد أن تعبت من الرقص، غلبنى النعاس فنمت، فلما جاءت أمى إلى مخدعى فى الصباح، ووجدت ضفائرى محلولة، وشعرى متناثر. منكوش وخصلاته ساقطة من على الوسادة وحتى الأرض. دبّت على صدرها وقالت: إنها الجن، ثم إنها نادت على جاريتى مال لتذهب فى التو وتأتى بالشيخة مبروكة والتى لأمى بها اعتقاد عظيم. فلما جاءت مبروكة عرتنى ونظرت ما بين فخذى لتتأكد من أن الجن لم يضاجعنى ويفض بكارتى فتكون جرسة وفضيحة بجلاجل فى برّ مصر كله.

رقتنى مبروكة العوراء كما أسميها، فقد أكل الرمد عينها اليمنى، وترك اليسرى عمشاء، ثم أنها بخّرتنى بالصندل والبخورات الطاردة للشياطين، وعملت لى عروسة قصّتها من الورق، وخرزت كل موضع فيها بسلاية ومخرز وهى تسمى نساءً ورجالاً يعرفوننى، وكذا كل مَن شافنى ولم يصل على حضرة النبى، ثم أحرقتها بطست وهى تبسمل وتتمتم وتهمس بكلمات مجنونة لا أفهمها، وعندما انتهت، تنهدت أمى بارتياح فنفست عن غضبها قائلة:

- يا رب طاعون يشيلك واستريح منك، من يوم أن كانت بذرتك فى بطنى، والغُلب راكبنى بسببك.

كانت تتمنانى ولدًا كأخى أحمد، أو بنتًا بيضاء سمينة يتهافت عليها الرجال والشباب، لكنى خيّبت آمالها، لونى الأسمر، وعودى النحيل هما السبب.

جنانى زاد عند دخول الفرنسيس مصر وانقلب حالى أكثر مثلما انقلب حال الناس كلها بسبب ذلك. كنا فى شىء وأصبحنا فى شىء آخر. كانت الأخبار تأتى كل ساعة، فيعرف الناس ما الذى يتم مع هؤلاء الكفار. كان أبى قد نبه على الجميع بما فى ذلك الخدم والجوارى والعبيد والفراشين بعدم الخروج إلا للضرورة، ولزوم الحاجة. باتت طرق النواحى والخرط خاوية كلها وبلا كنس أو رش لانعدام مَن يقوم بذلك، وظهرت الهجامة والحرافيش والجعيدية وتطاولوا بأفعالهم على الناس. لأن معظم الرجال والفتوات تركوا ما بأيديهم من أشغال وتحوّلوا إلى بولاق لملاقاة الفرنسيس، وغلا سعر السلاح كما قال قواس أبى له، وأصبح رطل البارود يُباع بستين نصفًا. حتى النبابيت والعصى غلا ثمنها. وظل أبى مجتمعًا مع المشاريخ والعلماء بزاوية على بيك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله، وبعض الناس تركت بيوتها وهجّت للأرياف، أو سكنت الخيام بعيدًا خوفًا من القتل والنهب.

لم أكن قد رأيت أيًا من الفرنسيس حتى ذلك الوقت، ولا حتى سمعت عنهم. رأيت الترك والأرنؤد والشوام والمغاربة والحبش والعرب، سواء بدارنا، أو وأنا أخرج مع مال وبعض الفراشين لجلب حاجات لأمى تلزمنا وتلزم الدار من الأسواق. مال قالت لى إنها سمعت مَن يقول إن الفرنسيس من الجبابرة الأقوياء، لهم أظافر طولها قدم، وأفواه ضخمة وعيون ضارية. وأنهم متوحّشون سكن الشيطان أجسادهم، وأنهم يمضون إلى القتال تربطهم سلاسل بعضهم ببعض.

أمى قالت إنهم من أنجس الكفار. يُقال إنهم لا يبالون بكشف العورات وأنه متى دعت أحدهم الحاجة قضاها فى أى مكان اتفق ولو بمرأى من الناس. ويذهب كما هو من غير استنجاء ولا استجمار، وهم يطأون ما تيسّر لهم من النساء ويحلقون لحاهم وشواربهم معًا وكأنهم من الغلمان المرد، ومنهم مَن يبقى شعره لعارضيه فقط، ولا يحلقون رءوسهم ولا شعر عاناتهم ويخلطون فى مأكولهم ومشروبهم ولا يخلعون نعالاتهم أبدًا ويطئون بها على الفرش الثمينة ويمخطون ويبصقون على الفرش ويمسحونه بالمداس.

غريب أمر الفرنسيس هؤلاء الذين حكت عنهم مال وأمى وصرت خائفة ومقروفة منهم، وأتمنى ألا أراهم أبداً. لكنى وخلال ذلك، كنت متضايقة ومتكدّرة منهم لسبب آخر. فقبل أن ينبه أبى على الجميع بعدم الخروج، كان أخى أحمد قد وعدنى أن يأخذنى ومال إلى حديقة «الصبفصاف والآس لمن يريد الحظو والائتناس»، وهى الحديقة التى طالما حكى لى ولأمى عنها وتغزل فى ملحنها فقال إنها للأمير قاسم بك أبو سيف مملوك عثمان بك أبو سيف، وهو صاحب ملكة وفكرة فى هندسة البناء فعمل هذه الحديقة بعد أن استأجر قطعة عظيمة من أراضى البركة الناصرية اتجاه داره من وقف المولوية وسورها بالبناء وبنى فى داخلها قصرًا مزخرفًا برحبة متسعة، وقسم تلك الأرض بتقاسيم للمزارع وحولها طرق ممهدة مستطيلة ومجار للمياه التى تصل إليها أيام النيل ومجار أخرى عالية مبنية بالمؤن والخافقى من داخلها تجرى فيها المياه

من السواقى ويحيط بذلك جميعه أشجار الصفصاف المتدانية القطاف، وبداخل تلك البركة المنقسمة النخيل والأشجار ومزارع المقائئ والبرسيم والغلة وغيرها يسرح فيها النظر من سائر جهاتها وتنشرح النفوس فى أرجائها ومساحاتها، وجعل السواقى فى ناحية تجتمع مياهها فى حوض وبأسفله أنابيب تتدفق منها المياه إلى حوض أسفل منه وعنده مجلس ومصاطب للجلوس وتجرى منه المياه إلى المجارى المخفقة المرتفعة ومنها تنصب من مصبات من حجر إلى أحواض أسفل منها صغار وتجرى إلى مساقى المزارع عند كل مصب منها محل للجلوس وعليه أشجار تظله بوسطه أيضًا ساقية بفوهتين تجرى منها المياه أيضًا والقصر يشرف على ذلك كله وحول رحبة القصر وطرق المشاه، كروم العنب والتكاعيب، وأباح للناس الدخول إليها والتنزه فى رياضها والتفسح فى غياضها، وقد نقش مُسمى الحديقة فى لوح من الرّخام وسمرة فى أصل شجرة عند مبتدأها، فأقبل الناس عليها للنزهة ووردوا إليها من كل جهة وعملوا فيها قهاوى ومساقى ومفارش واتخاتًا يفرشها القهوجية للعامة وقللاً وأباريق واجتمع فيها الخاص والعام وصار بها مغان وآلات وغوانى ومطربات، وجعل بها كراسى للجلوس وكنيفات لقضاء الحاجة. فلما ورد الخبر بوشوك حلول الفرنسيس، امتنع أخى عن الخروج إلى هذا المنتزه وأنشغل مع أبى وكل الرجال فيما سوف يحدث بعد دخول الفرنسيس وما سوف يفعله أهل المحروسة معهم. حزنت وندبت حظى لأنى لم أذهب إلى هذه الحديقة لأراها وأرى أصحاب المغانى فيها والمقاهى وأشوف

خارطة فى المحروسة غير خارطة البركة التى نعيش فيها ولا أغادرها قليلاً مع مال والفراشين إلى الأسواق القريبة.

أمى اجتهدت فى الأيام الأخيرة وجمعت كل صيغتى وصيغتها من ذهب وفضة ولآلئ، وكذا كل موجود مهم فى البيت وخبأته فى سرداب أسفل الأرض، لا يعرف مكانه غيرها وأبى ومال وأخى أحمد وأنا. أبى نصحها بذلك، حتى إذا هجم الفرنسيس على الدور لا يجدوا شيئًا غير الحصر على الأرض والكنب الخشب العارى. أمى قالت لو ساء الحال، فلسوف نخرج جميعًا نحن الحريم والعيال ونفر إلى الصعيد، فالفرنسيس لن يرحموا أحدًا وخصوصًا الحريم لأن لهم بهن ولع عظيم. تتمنى ألا نخرج ونترك دارنا، لكنى أتمنى أن نذهب لأرى الصعيد هذا. أمى تقول إن المشايخ والعلماء تجمعوا فى الأزهر، وأرسلوا للفرنسيس يطلبون أمانًا لهم وللناس الذين ليسوا من العسكر ولا يرفعون سلاحًا، ودعت الله أن يجاوبهم الفرنسيس بسرعة ويعطونهم أمانًا.

لم يمر إلا يوم واحد بعد ذلك، وإذ بأخى أحمد يجىء إلى الدار حاملاً البشارة، فالفرنسيس جاوبوا العلماء والمشايخ على مراسلتهم، وقال أخى لأمى، إن الفرنسيس قالوا فى ردهم، بأنهم لم يحضروا إلى البلاد إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار، رأخذوا مال الأعيان والتجار، ومال السلطان العثمانلى، وأن المشايخ والعلماء والرعية وأصحاب المرتبات، فليكونوا مطمئنين وفى مساكنهم متاجرين ومرتاحين،

وقال: إنهم طلبوا المشايخ والشورياجية لملاقاتهم وترتيب ديوان من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمر، فركب إليهم الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ الفيومى وغيرهم فى الجيزة.

أمى لم يعجبها الكلام وقالت: الفرنسيس كفار، والكافر لا كلمة ولا عهد له، وأنها ستخفى الموجود العزيز فى السرداب حتى تتضح الرؤية وتظهر الحقيقة ولن تخرجه وتستر به البيت مثلما طلب أحمد منها وأشار عليها، فالفرنسيس لن يكبسوا الدور والبيوت. الأمراء المماليك لم يتحمّلوا غلوة فى يد الفرنسيس، انكسروا وهربوا كل واحد بعساكره فى ناحية ولما عرف ذلك أوباش الناس والحرافيش والجعيدية وأرباب المناسر هجموا على بيوت المماليك الفارين والكبار، وأخذوا كل ما وجدوه من فرش ونحاس وأمتعة، وحصلت بهدلة كبيرة لا أول ولا آخر لها، وبعد ذلك عدت الفرنسيس إلى بر مصر، ودخل كبيرهم بهوجة كبيرة لخط الأزبكية الذى نسكن فيه، وسكن بيت محمد بك الألفى بخط الساكت وكان يوم ولا يوم الحشر، ومن وقتها وحالى وحال بيتنا انقلب، ومصيرى وحظى انعقد بانعقاد أمر الفرنسيس فى البلد.

أبـى

صامت دومًا، لا أذكر أنى سمعته يتكلّم إلا نادرًا، سحنته باردة، وراسم بعينيه نظرة لا تتغير، وكأنه يقول أنا لا أبالى ولا شىء فارق معى.

لا أذكر على مدى عمرى البالغ ستة عشر سنة، أنه قبلنى مرة، أو ربَّت علىّ، أو حتى لامسنى. أعرف أنه أبى، لكنى لا أعرف معنى هذه الكلمة، ما أدركه منها هو أنه ولى نعمتنا. سيد الكل وتاج رأسنا، وسبب وجودنا وبقاءنا كما تقول أمى، وهو صاحب البيت الوسيع المطل على بركة الأزبكية الساكنين فيه الآن، بعد نزاعه مع ابن عمه السيد محمد أفندى على بيت البكرية الكبير، وهو النزاع الذى انتهى باقتسام البيت، فعمر أبى منابه، عمارة متقنة، وزخرفة، وأنشأ فيه بستانًا زرعه بأصناف الشجر والفواكه، كالكافور والصفصاف والآس وأم الشعور والنبق، لكن أحلى ما أحب فى البستان شجرة السفرجل ودالية العنب المُطل عليها شباكى.

بيتنا من أحلى بيوت المحروسة. فرشه من صنوف الأطلس والهندى وسجاجيد العجم. لدينا خدم وجوار وعبيد وفراشين. رغم

ذلك كله، أشعر أنه ناقصنى شىء. أظن أن هذا الشىء هو أبى. بل أظن أن هذا البيت الكبير بكل ما فيه من يُسر وغنى هو الذى يباعد بينى وبينه، فهو لا يأتى إلى موضعنا فى الحريم إلا لزيارة جدتى أمه والتى تفتخر أنها من ذرية الشيخ شمس الدين الحنفى، أو زيارة جواريه فى الغرف المخصصة لهن: غرفة رمانة، أو غرفة شوق، أو خديجة البيضاء، أو دلبر التركية. يأتى إلى غرفة أمى كذلك، وهى الوحيدة التى تكلمه دون أن تضع نظرها إلى الأرض. هى سيدة كل نساء البيت ولها الكلمة المسموعة والرأى النافذ على كل الحريم والخدم والفراشين والعبيد، وهى التى يأتمنها أبى على شئونه وأحوال معاشنا كل يوم، لكنها لا تملك رغم ذلك شيئًا من أمرها، فهى لا تخرج إلا فى السنة مرة لزيارة أمها وخالاتى، ولا تذهب إلى الحمام، إلا نادرًا فى أيام الأعياد والموالد. لم آكل مع أبى مرة واحدة، بل آكل مع الحريم بمفردنا، وعندما كان يولم الولائم فى المناسبات بدارنا للأمراء والمشايخ والأعيان والتجار، فقد كنا ننتظر حتى ينتهى ضيوفه الرجال من التهام طعامهم، فنأكل نحن الحريم ما تبقى منهم خلال ذلك، كنت أرى هيئته من المشربيات المطلة على المضيفة على نحو مختلف، إذ يبدو ضخمًا فخيمًا مُخوفًا وهو يجلس بين الرجال لابسًا عباءته ذات الكنارات العريضة من فرو السمور الأبيض عند الصدر والأكمام ويضع عمامته الضخمة على رأسه وقصبة الشُبك التى يدخنها داخل مبسمها بين شفتيه، وبيده مسبحته العقيق الداكنة، كنت وقتها عندما أنظره على هذى الحال، أتعجب من أن يكون هذا

الكائن الذى على تلك الهيئة هو أبى، أعتقد للحظات أنه جنى خرج لتوه من قمقم وأخاف منه وأراه غريبًا وكأنه ليس من البشر.

لم يعلمنى القراءة ولا الكتابة مثل أخى أحمد. حاولت أمى وجواريها تعليمى التطريز، لكنى لم أميل إليه ولم أستحب ذلك. فقط أحب الرقص، الذى تقول أمى عنه أنه ميّاسه وهطالة بنات ومرقعة لا تجوز، وأن أبى لو علم بحبى وولعى به لأمر بقصف رقبتى. كل يوم لا أرى غير الحريم. الجوارى. خادمات. الرجال فى الجانب الآخر من البيت. أحيانًا أتطلع إليهم من المشربية التى بغرفتى وأحسدهم لأنهم يروحون ويجيئون مثلما شاءوا.

لا أظن أن أبى يعرف شكلى، فهو لا يرانى ولا أراه إلا نادرًا، وعندما يحدث ذلك، فقلما يكلمنى أو يبتسم فى وجهى. أدخل للسلام عليه أحيانًا عندما يكون عند أمى أو جدتى فى غرفتها فيمد يده لى دون أن ينظر فى عينى. لم أشعر أنه مهمومًا بزواجى مثل أمى التى لا أعرف أخبار أبى إلا من حكايتها عنه، مثل تلك الحكاية التى ظلت مشغولة بها ومتكدّرة منها، وتبدأها وتنهيها وهى تدعو الله أن ينصره فيها نصرة قوية على عدوه المتربص به دائمًا عبد العال، والذى دبر المُشكل الذى وقع فيه أبى، بالاتفاق مع خادم مملوكه كما تقول أمى، وهو من ذهب على لسان المملوك إلى بليار قائمقام الفرنسيس وأخبره أن أبى وصل له فرمان من الأوردى العثمانلى بالأمان. وعبد العال هذا، كما تقول هى أيضًا - كان فى الأصل من أوباش الناس ونيته كانت توقيع أبى فى الوبال وتحريك

حقد الفرنسيس عليه فيوقعونه فى العذاب البئيس لحزرة بينه وبين أبى وميله للمملوك شهاب الفتى الأمرد، مما جعل أمى تتصوّر العمى ولا تتصور شهاب، فأبى مبتلى بحبه، ولا يصبر على مفارقته أو يطيق الابتعاد عنه.

ذهب أبى إلى قايمقام الفرنساوية ذات يوم، كعادته منذ أن سيطروا وتسلطنوا هؤلاء الكفار على البلاد وعملوا الديوان، فسأله قايمقام عن الفرمان العثمانلى فجحده أبى، فأحضروا خادم شهاب المبلغ لهم عن ذلك فصدق عليه وأسنده إلى المملوك سيده فأحضروا المملوك وسألوه فقال نعم، فقالوا له وأين الفرمان؟. فقال قرأه وقطعه، فقال الفرنسيس وكيف قطعه؟. هذا دليل الكذب، لأنه لا يصح أن يتلقاه بالقبول ثم يقطعه، فقيل له ومن أتى به فقال المملوك فلان، فألزموا أبى بإحضار الرجل المتهوم وحبس المملوك عند عبد العال يومين.

تقول أمى عند هذا الحد من الحكاية: وطبعًا نال عبد العال غرضه من المملوك خلال اليومين، فلما حضر الرجل، فسألوه فجحد ذلك فلم يثبت عليه شىء وظهر كذب الغلام والخادم، فعند ذلك طلب أبى غلامه، فقال قايمقام الفرنساوية أن وقصاصه فى شريعتنا أن يقطع لسانه، فشفع فيه سيده وأخذه بعد أمور وكلام قبيح قاله الغلام فى حق أبى.

أغير أنا أيضًا من شهاب المملوك عندما أسمع هذه الحكاية لأن أبى وطوال هذه الكربة التى جرت له، ظل متغيّر الأحوال، لا يقرب الطعام، غارق فى الشراب، ينام فى غم ويفيق على غم،

أبى يحب شهاب ولا يحبنى مثله. تقول أمى إن بعض الخدم سمعوه يبكى وينهنه بالليل كالعيال حسرة على مملوكه الغائب والنائم فى حضن عبد العال. أمى غريبة. تحب أبى ولا تعصى له أمرًا رغم أنه يبيت أيامًا فى حضن شوق ودلبر ورمانة وخديجة البيضاء وشهاب، وكل ما يشتهى من الجوارى والغلمان. ومرة حكت أمى لابنة عم أبى عن عبد العال هذا، فقالت إنه كان فى الأصلِ من أسافل الناس الجعيدية وأراذلهم. فى الأصل كان أجيرًا لبعض نصارى الشوام بخان الحمزاوى ويخدم، ثم توسط لمصطفى أغا بسبب معرفته للنصارى التراجمين حتى تقدم بواسطته وقلدوه الأغوية فعمله والمقصود عبد العال كتخداه ومشيره، فلما تولى محمد أغا تقيد معه كما كان مع مصطفى أغا، ولكن دون الحالة التى كان عليها لصلاحية محمد أغا عن مصطفى أغا. لكن مات مصطفى أغا بالطعن يا حبة عينى ـ تقول أمى وتستمر بحكايتها لابنة عم أبى وخرج بعد وضعه فى نعش خرج به الحمالون من غير مشهد ولا جماعة وأمامه جماعة منهم يطردون الناس من التقرب إلى نعشه خوفًا من تفشى الطعن، كما كرتنوا داره وأغلقوها على مَن فيها، وبعدها نزل الأمر لعبد العال بأن يكون عوضًا عن محمد المطعون، فأصبح أغا مستحفظان لاشتغال الوقت بما هو أهم من ذلك بسبب انفتاح الحرب مرة ثانية مع الفرنساوية والطاعون وغير ذلك لم أجد ابنة عم أبى هذه ظريفة من أساسه، وقد جاءت لتقيم بيننا فى الحرملك بدار الأزبكية، بعد أن حضر رجل لعند أبى من ناحية غزة يطلب أمانًا من الفرنساوية للست فاطمة زوجة مراد بك ولابنة عم

أبى وزوجها واسمه زين الفقار وخشداشه، فعرض أبى ذلك وترجى عند صارى عسكر بحجة أنها ابنة عمه، فكتب لهم أمانًا بالحضور وأرسل لهم نفقة وكان ذلك حيلة منهم، فجاءت وأسكنوها الغرفة الكبيرة المجاورة للحمام بالدور الثالث بالبيت، لكنى لم أحبها لعنطزتها وتكبُّرها ووصفها لى دائمًا كلما رأتنى طالعة نازلة بفرقع لوز، ولأنها تقول لأمى باستخفاف: من أين جئت بهذه السوداء؟ هل كنت تتوحمين على خنفساء؟ وكلام آخر من هذا النوع الموجع الجارح ولو أتى على سبيل الممازحة واعتبار أنه لا يمس الحس والشعور، وإن كانت بعده تمتدح جمال شعرى وسواده وهى تقول: ربنا سترها بكومة الشعر على رأسها، وإلا كانت هذه المعزى لا تساوى بارة واحدة فى سوق الجوارى والعبيد.

أبى الذى لا أعرفه كثيرًا، تقول أمى إن أحواله تغيّرت بعد تسلطن، الفرنسيس، فلقد بات متكبّرًا، عصبيًا ومكروهًا من الناس مثل كل رجال الديوان الذى عمله الفرنسيس وألفوه من المشايخ والتجار، وأن أبى تداخل مع هؤلاء الكفار وتمادى معهم بعد فرار السيد عمر مكرم إلى بلاد الشام، وأن أبى عرف صارى عسكر أن نقابة الأشراف كانت لبيت البكرية دائمًا، لكنهم غصبوها منا، وقلدوها للسيد عمر فصار وقفها وإيرادها له دون عائلتنا، وقالت إن الناس باتوا يعاملونه بخشونة لأنه يحابى الفرنسيس وأن كلمته مسموعة وشفاعته مقبولة عندهم. بيتنا وبعد أن صار أبى النقيب صار لا يخلو من رجل رائحة ورجل جايه لأصحاب الدعاوى

والشكاوى، ومن أكابر الأمراء المصرية الذين كانوا خائفين ومتغيبين بعد حلول الفرنسيس.

بالليل، وبعد أن يفرغ من أصحاب المطالب وأعماله معهم يجلس أبى ليشرب الخمر الذى يجلبه من الفرنسيس تقول أمى كذلك وتضيف: شيء اسمه برجندى وشيء اسمه براندى، ورستم رضا مملوكه يظل واقفاً على رأسه يصب له من هذا حيناً، ومن ذاك حيناً آخر، وأظل ساهرة أشرف على عمل أطباق يحبها ويفضلها دون غيرها وهو يشرب، بل وربما أيقظنى من أحلاها نومه لعمل طبق سلطة له.

هذا ما أخذناه من الفرنسيس وأيامهم. تقول أمى وماله الحشيش والمنزول الذى كان يشربه مع المشايخ قبل حلول هؤلاء الكفرة وتسلطنهم على البلاد؟. ماله مغلى الحشيش الذى كان يشربه قبل أن يعرف هذا البراندى والبرجندى؟.

أخى أحمد

هادئ. فى حاله. لا أراه إلا قليلاً. يذهب دومًا مع أبى إلى أعماله، ولا يتداخل مع الفرنسيس مثله. له شئونه التى لا نعرفها نحن فى الحريم عمومًا، أنا أحبه فهو يعاملنى بمنتهى الأدب والذوق، ولا ينادينى إلا بالست زينب من باب الاحترام والاحتشام.

يجىء إلى جدتى بين الحين والحين ليسلم عليها ويجلس معها قليلاً ويقول لها بعضًا من الشعر الذى سمعه أو قرأه، لأن جدتى تحب الشعر والشعراء والإنشاد والمغنى، ويأتى لرؤية أمى كل صباح، ويبقى إلى جانبها وقتًا، يمازحها أحيانًا، وينقل لها أخبار البلد وما يحدث فيها ولا نعرفه نحن الحريم.

أمى تفضله عنى لأسباب كثيرة، منها أنه أبيض. حلو الوجه، ثم أليس هو ذكرًا؟ أوليس هذا بكاف ليعمر حبه قلبها؟.

أحمد الذى ليس له فى الثور ولا الطحين عادة، ويبقى فى حاله دائمًا، تغيّرت أموره هو الآخر بعد تسلطن الفرنسيس، بات يأتى إلى الحريم أكثر، يجلس بجانبى، يمازحنى حينًا كما يمازح أمى

وهذا ما لم يكن يفعله من قبل، يسألنى عن أحوالى فترد أمى بدلاً منى: مطيورة ونفسى تثبت وتعقل كبنات الناس. أسأله عن الفرنساوية الذين لم أرهم حتى الآن. مال جاريتى تقول إن عيونهم حمراء ويتطاير منها الشرر كالعفاريت، وأن ربنا سخطهم بسبب غضبه عليهم لأنهم كفار وجعلهم مُرد بلا لحى، يبتسم أحمد ويقول إنهم بشر مثلنا، وربما ترينهم ذات يوم، ويقول إنهم عملوا ما لم يعمل فى البلد من قبل، مثل ما أحدثوه على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية، حيث ابتدعوا أبنية وكرانك وأبراجًا فيه، وهدموا عدة دور كانت للأمراء المملوكية، ووضعوا فى الأبنية والأبراج عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين، ثم أنهم أخذوا أنقاض ما هدموه من الدور وكذا رخامها وأخشابها لأبنيتهم وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية والدنيوية، كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين وحكى لى ولأمى أنهم لا يمانعون أن يذهب إليهم الشخص فيطلعونه على ما لديهم من كتب ومعارف، وأنه ذهب إليهم فى موضعهم هذا مرارًا فأطلعوه على كتاب من جملة الكتب التى لديهم، يشتمل على سيرة النبى عليه الصلاة والسلام، ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظرًا إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم.

كما أن لديهم كتب بتصاوير شتى للبلدان والسواحل والبحار المصرية والأهرام وبرابى الصعيد، وما يختص كل بلد من البلاد

المصرية من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح وغيرها.

تمنيت أن أرى الفرنسيس وما عندهم من عجائب وغرائب ذكرها أخى أحمد وقال إن ما يحكيه لنا هو قليل من كثير شاهده ورآه عند هؤلاء الناس، وأنهم صوروا كل مشايخ الديوان بما فيهم أبى، فتمنيت أن يرانى الفرنساوية ذات مرة ويصوروننى بأقلامهم وألوانهم التى شاهد بعضًا منها أخى أحمد.

ولكن ما أقوله ليس أكثر من أمنيات، فنحن الحريم ممنوع علينا الذهاب إلى مثل هذه الأماكن، وممنوع علينا رؤية كائن كان إلا بأمر وبإذن ولسبب مما يجعلنا دائمًا حريم.

كنت أتمنى أن أذهب يومًا إلى بيت حسن كاشف جركس الذى أفرد فيه الفرنسيس مكانًا لصناعة الحكمة والطب الكيماوى، لأرى ما رآه فيه أخى أحمد وحكى لنا عنه، إذ إن بعض الفرنسيس المتقيدين للعمل بهذا المكان، أخذوا زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئًا فى كأس ثم صب عليها شيئًا من زجاجة أخرى فعلاً الملآن وصعد منه دخان ملوّن حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجرًا أصفر فقلبه على البرجات حجرًا يابسًا أخذناه بأيدينا ونظرناه، يقول أخى أحمد ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمّد حجرًا أزرق وبأخرى فجمد حجرًا أحمر ياقوتيًا، وأخذ مرة شيئًا قليلاً جدًا من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له

صـوت هـائل كـصـوت الـقـرابانة انزعـج منه كل من حـضـر مـن أبناء المسلمين، مما جعل الفرنسيس يضحكون على ذلك كثيرًا .

صارى وأنا

حكايتى معه ليست الحكاية التى حكوها بالضبط. عدلوها وقيّفوها، وجعلوا الغاية منها والمراد ما يليق بكيفهم وهواهم، شنشنوا وطنطنوا بها، وجعلوها على كل لسان ليصفوا حساباتهم مع أبى بها. لا إله إلا الله.

والمبتدأ فى الحكاية هو أن صارى عسكر سأل أبى عن مولد سيدنا النبى، ولماذا لا يعملونه كعادتهم، فاعتذر عن ذلك بتوقف الأحوال وتعطيل الأمور وعدم المصروف، والحقيقة أن أبى ما كان عنده نفس للفرح والسرور، ولا أحد غيره فى بر مصر كان عنده نفس ولا به حيل لعمل أى شىء، فالدنيا انقلب حالها والفرنسيس جابوها من سافلها لعاليها وأبى كان يخشى أن يشمت الناس فيه أكثر ويقولوا عمل المولد، والناس متكدّرة وأمراء المسلمين متشرّدة، وهو يولم الولائم والناس لا تجد القوت، وكلام كثير من هذا النوع وهو لا يريد أن يأكل أحد وشه. والمولد جرت العادة أن يكون لسجادتنا وبيتنا الكبرى، أى أن الموضوع سوف يصبح حكاية ورواية.

لكن بونابرته وكما تقول أمى، لم يقبل بأعذار أبى، ورغب فى عمل المولد كما المُعتاد، حتى لا تقول الناس إن الفرنسيس وصارى عسكرهم بَطلوا أعياد المسلمين وأنهم يكرهون الإسلام. قال بونابرته لأبى لا بد من عمل المولد كالمعتاد، وأعطاه ثلاثمائة ريال فرانسة يستعين بها ويمشى أموره، ثم أنهم علقوا أحبال وقناديل وزينة، شىء على طريقتهم وشىء على طريقة أولاد العرب المعهودة، واجتمع الفرنسيس يوم المولد ولعبوا ميدانهم، ودقوا طبولهم وأحرقوا حراقة فى الليل وصواريخ تصعد فى الهواء وتغوص، ونادوا فى اليوم بفتح الأسواق والدكاكين ليلاً واصطناع زينة لكل من يقدر على ذلك من التجار وأرباب الحرف والميسورين.

وكان الخبر قد شاع فى كل النواحى بأن أبى سوف يتقلّد نقابة الأشراف عوضًا عن السيد عمر مكرم الذى كانت له النقابة قبل تسلطن الفرنسيس، وفرّ مع الأمراء المصرية بعد انكسارهم فى انبابه، وبات من المعروف أن دعوة أبى لصارى عكسر على العشاء بدارنا، إنما هى لهذا السبب، ويبدو أن أبى نبه على أمى قبلها وأعلمها بأمر الوليمة، لأنى رأيتها تعمل غاية جهدها، وكل طاقاتها لتكون هذه الوليمة مبذول فيها ما لا يبذل فى ولائم دارنا الجارية كما هى العادة كل يوم، حيث يمد السماط وقتى الغداء والعشاء مستطيلاً فى الفناء الداخلى للدار وقريبًا من المطبخ الرجالى، الذى هو غير المطبخ المخصص للحريم، وبحيث يكون مبذولاً للناس، ويجلس أبى وسطه كما عادة الأعيان وحوله الضيفان، ومن

دونهم مماليكه وأتباعه على أن يكون الفراشون فى وسطه يفرقون على الجالسين ويقربون إليهم ما بَعُد عنهم من القلايا والمحمرات، ولا يمنع وقت الطعام من يريد الدخول أصلاً لأن ذلك من المعايب، وكثيرًا ما كان يفد خلال ذلك بعض الناس من ذوى المطالب والحوائج وراغبى الوسائط، فيبذل أبى ما هو فى إمكانه لترضيتهم وفك ضيقتهم.

لذلك وجدت أمى تبيت على الخدم والفراشين، أن يأتوا فى الموعد المعلوم بالخام والخيام، والفراشات والطرازات والأطباق البابا عفورى والكاسات والفناجين المعدن والزارات والنحاس، على أن يكون الطباخين والحلوجية والجزارين ببيتنا من وقت طلوع النجمة. أما هى، فقد أخرجت من الخوارنقات والدواليب والخزائن خاصتنا والتى بالدار شىء ما ليس له حصر من كاسات بللور بندقى، شىء كبير وشىء صغير مختصر وشىء بالطرز والنقوش المذهبة، وشىء ملون لون عين الكتكوت أو الأزرق النيلى، إضافة إلى مكبات صينى وصوانى فضة وأطباق خزف عثمانلى مطبوعة برسمات الأزاهير والورد الجورى، أما البسط والسجاجيد، فقد مدت منها ما هو قباطى الهيئة وعجمى ومغربى، وكان بعضًا منه مما تدخره لجهازى وفرش دارى المخصوصة حين زواجى، وهذا إضافة لما هو مفروش بالبيت وممدود على أرضيته من قبل.

لم يكن هذا المولد بكل هذى الاستعدادات كأى مولد مرّ على دارنا من قبل، لكنه كان مخصوصًا عندى وحتى نهاية حياتى، لأن

أمورى ومعاشى وكل تفاصيل وجودى، تغيّرت بعده وانقلبت رأسًا على عقب، وتحوّلت ذاك التحوُّل الذى انتهى بى إلى ما انتهيت إليه، ولتصنع من خلال ذلك كله قصتى التى قصوْها فيما بعد، وفقًا لغرضهم وهواهم ومقصودهم الباطل.

كانت استعدادات أمى قد طالت كل شىء بالدار خلال هذا اليوم، فالحيطان العالية أجليت عنها العناكب بعد الهجوم المفاجئ الشرس عليها بالسعافات الطوال المتكومة عند رءوسها كتل ليف النخيل الخشن، وتم إخراج رأس العبد من مكمنها بالصندرة الموجودة بالطابق المسحور، لتساهم فى الحملة على العناكب، بما لها من قدرة وهمه على مواجهة الصغير والضعيف من هذى العناكب بسبب ريشات النعام السودانى الخفيفة الناعمة، وهو ما لا تقدر عليه السعافات الليف، أما المشربيات، فقد تحممت بالماء الكثير المجلوب من ساقية الدار حتى لمعت وبان لونها الجوزى الجميل، كما أجليت رخامات الأرضيات وشطفت بالماء والصابون، ولقد سفح الخدم والعبيد والجوار عرقًا وجهدًا لا يوصف حتى بات كل شىء نظيفًا لامعًا ويشف ويرف لشدة الدعك والعناية، وحتى لا نترك مجالاً لأى شىء ينتقده الفرنسيس، أو يعيبون بسببه على أولاد المسلمين. لم تتسانى أمى فى ذلك اليوم، فدفعت بى إلى الحمام المعتاد ذهابى إليه مع جاريتى الحبشية مال وهو حمام يزبك، فأوصتها بأن تتعهدنى أم اليسر البلانة بالعناية على وجه التحديد لأنها أمهر بلانات الحمام. كانت أم اليسر هى التى نصحت أمى بوضع لبابة الخبز الساخن على ثديى ليزداد حجمهما

مع المداومة على أكل طبق مفتقة كل يوم وقت الإفطار وهو ما أصريت على رفضه والممانعة فيه لأننى لا أطيق رائحة الحلبة المضاف إليها العسل الأسود المصنوعة منها، ومهما تحمم الإنسان وتعطر تظل رائحة عرقه كريهة حتى لو تدلك بالمسك والعنبر.

فركتنى أم اليسر بالليفة، وأعقبته بالصوفة، ودلكت جسدى مرارًا وحكت كعبى جيدًا بالحجر الخفاف وهى تدندن بأغان لا تتداول إلا فى السوق، وداخل الحمام، فقالت:

الساق مثل اللولى

والشنتيان دابولى(*)

لما سكّر حَله لى

ولعبت أنا وياه

ثم إنها بعد الدلك عملت لى رَسْمة لتزيل شعر جسدى، ورغم أننى لا أطيق الرسمة عادة وأكره تلك العجينة المحروقة ذات اللون البنى الداكن والتى تحرق حرقًا خفيفًا وتعجن بالماء وبقليل من الجير المطفى، فتسقط الشعر فى بضعة دقائق، إلا أننى تركت أم اليسر تعمل الرسمة، لأجل خاطر أمى وقد تمنت أن أكون على أفضل حال فى مثل هذا اليوم، ككل شىء ببيتنا، فزيارة كبير الفرنسيس لنا ليست بالشىء القليل، وهو سلطان البلاد الذى قهر الأمراء والعثمانلية، وأصبح الكل فى الكل، وصاحب الحل والربط.

(*) الشنتيان: نوع من السراويل الواسعة المعمولة بدكة عند الخصر. الدابولى هو نوع من القماش الخفيف. قطن أو حرير مخطط بألوان.

كانت مال قد أودعتنى مقصورة مخصوصة داخل الحمام لها باب كما أمرتها أمى، وكذلك فى المشلح وهو المكان المخصص لخلع الملابس، حتى لا نختلط بنسوان العوام، والحوض الذى اختصيت به كان برحًا، حسن المنظر يسع حوالى أربعة روايات ماء، ويصب فيه ميزابان حار وبارد، وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جدًا مرتفع، فإذا اختلطا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير، وهو ربعه فوق الأرض وسائره فى عمقها وقد نزلت إليه واستنقعت فيه حينًا.

تسلمتنى الماشطة بعد الانتهاء من كل ذلك، وبعد أن ارتديت ملابسى مرة أخرى، فسرحت شعرى وأضافت إلى الزيت الطيب قليلاً من زيت اللوز، ومسدت به جميع خصلاته، ثم أنها فرقته من عند مبتداه ومنبته إلى قسمين، ضفرت كل قسم منه ضفيرة طويلة، ثم عقصت الضفيرتين عقصات جميلة معًا ولفتهما حول رأسى، ونثرت على بعد ذلك عطور الياسمين والبنفسج الفواحة.

فى النهاية، وعند خروجنا دفعت مال ثلاثين بارة كاملة لصاحب الحمام وهو مبلغ كبير إضافة إلى إكراميات البلانة والماشطة، ونفحت بعض الشحاذين المستقرين عند باب الحمام عند خروجنا بارة أو اثنين، فدعوا لى دعوات كثيرة.

وكانت أم اليسر قد خرجت معنا من الحمام لأن حصة عملها قد انتهت وستحل محلها بلانة أخرى فسرنا حتى جهة التبانة لأن مال لها أخت جارية مملوكة عند جماعة هناك، وقد استأذنت مال

أمى فى العروج على أختها لتحيتها ولتطمئن عليها. وبينما نحن نسير خطت أم اليسر الطريق مسرعة وهى تتجاوز بيتًا كبيرًا بابه موارب قليلاً، وهمست أم اليسر: دستور يا أسيادى ثم قالت لنا إن هذا البيت يُقال إنه كان لأحد الشيوخ المرفوع عنهم الحجاب وهو رجل لم يتزوج قط،.وانقطع فى بيته أزيد من عشرين سنة بمفرده وليس عنده قريب ولا غريب ولا جارية ولا عبد ولا من يخدمه فى شىء مطلقًا وبابه مفتوح لا يغلق أبدًا وعنده الأغنام والدجاج والأوز والبط والجميع مطلوقون فى الحوش وهو يباشر علفهم وأطعامهم وسقيهم الماء بنفسه ويطبخ طعامه بنفسه، وكذلك يغسل ثيابه. واشتهر فى الناس بأن الجن تخدمه وأنه كان من أهل المعارف والأسرار، وكان له مشاركة جيدة فى العلوم والمعارف والأسماء والروحانيات والأوفاق واستحضار تام فى كل ما يسأل عنه، وكان عنده عدة كثيرة من السنانير ويعرفها بأسمائها وأنسابها وألوانها ويقول هذه تحفة بنت بستانة، وهذه كمونة بنت ياسمين وهذه فلانة أخت فلانة، فلما مات خربت داره وبقيت مهجورة إلا من هذه القطاط والتى تقول الناس ما هى بقطاط بل هى تتحول إلى عفاريت وجن خلال الليل، وهناك مَن يزعم وأنه رآهم وقد تحولوا إلى تلك الحال، وأن أشكالهم غاية فى الغرابة والتخويف.

عدت إلى الدار مع مال مرة أخرى، ولكن قبل ذلك ذهبنا إلى سوق الشماعين وابتعنا شموعًا عدة كانت أمى قد طلبتها من مال، خوفًا من عدم كفاية ما هو مخزون لديها منها.

ألبستنى أمى السراويل الموسلين القصيرة، وفوقها اليلك وهو ما يلبس فوق القميص وثوب مفتوح من الأمام له أكمام طويلة ومحبوكة، وكانت جبتى التى ارتديها فوق ذلك كله غاية فى الروعة بأكمامها الواسعة القصيرة وتطريزاتها المورقة على هيئة أوراق شجر متناسقة الأشكال بخيوطها الذهبية اللامعة على قماش الأطلس الأزرق السماوى، ثم أن مال ربطت الجبة عند موضع الخصر بحزام من الموصلين الوردى الفاتح، ولم أرتد السبلة المخصصة للخروج كما جرت العادة والتى تكون عادة من قماش التفتاه لأنى لن أغادر البيت وسأبقى أنظر المولد مع الحريم فى البيت.

كانت أمى قد دعت عددًا من حريم المشايخ والأكابر لحضور وليمة بونابرته والفرجة على ليلة المولد فى دارنا، وأظن أن غرضها من تزيينى وتلبيسى على هذا النحو، ما كان إلا لأنها ترغب فى أن ترانى تلك النسوة شابة مليحة، ولعل وعسى تقع عين واحدة منهن علىَّ فتتخذنى زوجة لابن أو قريب، وربما لزوجها نفسه فأصبح واحدة من حريمه، فالعديد من النساء يخترن زوجات لأزواجن إرضاء لهن وخشية تطليقهن بعد أن كبرن فى العمر وفقدن حلاوة الشباب وجماله فلا يرغب فيهن الرجال.

بدت ضفائرى المعقوصة بنظام حسن فوق رأسى وكأنها تاج تشكل بحبات ضخمة من العقيق الأسود اللامع، ثم أن مال ألبستنى طاقية زرقاء موشاة كما جرت العادة، وفوقها الطربوش الحريمى

ولفتة بقمطة من الموصلين الأبيض من تحت وباللون الوردى الزاعق من فوق فكانت القمطة مع الطربوش تحفة مكتملة، خصوصًا وأن أمى شبكت فيها لآلئ وماسات صغيرة إضافة إلى البرق الذى ثبتته فى شعرى والذى ما هو إلا رقائق ذهبية مشبوكة فى أطرافها بعملات ذهبية هى السكين فبدوت غاية فى الحسن مما جعل مال تترنم وهى تضحك بأغنية شامية شاعت فى الأفراح، وتقول «يلبق لك شك الألماس»، ثم أنها زغردت وتمنت على الله أن يكون عرسى قريب ويصير بدارنا الفرح مثلما كل الناس.

فى النهاية أدخلت أمى ببنصرى خاتمها اللعلع الغالى والذى كانت تحرص عليه أكثر من أى شىء آخر فى مصاغها كله لأنها ورثته عن أمها، كما أدخلت بسواعدى وكعوبى سلاسل ذهبية عديدة التمعت بشدة لأنها كانت من الذهب البندقى، وزينت رسغى بأساور مفصصة بالماس والزبرجد، ثم ألبستنى عقودًا من لآلئ صغيرة اسمها العقدة، وكذلك بالشوطات وهى عقود أخرى من اللآلئ المنظومة المربوطة من طرفيها بربطة الرأس، فلما نظرت نفسى فى المرآة، وبعد كل هذى الزينة، كدت لا أعرفها وقد أظهر الكحل الأسود الكثيف سحر عينى وروعة حاجبى الطويلين المزججين، وبت أتضوع عطرًا، وأنضح عبيرًا بعد أن أمطرتنى مال برذاذ العطر مرة أخرى، وأتت بالمبخرة فبخّرتنى داعية الله أن يدفع عنى العكوسات ويحط حصوة فى عين كل مَن يرانى ولا يصلى على النبى.

كان بونابرته منذ أن عدى، بجيشه إلى بر مصر يسكن ببيت محمد بيك الألفى بخط الساكت عند الطرف الآخر من بركة الأزبكية وهو ما جعل أمى تتنهد وتزفر كلما جرى ذكر الألفى إياه، لأن المذكور كما كانت تقول عنه بحسرة وتتصعب ـ لم يهنأ به يومًا واحدًا، فبعد أن عمره وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة وهيأه بالفرش الفاخر المجلوب من بقع بعيدة، وبعد أن تم تمامه حصلت حادثة الفرنساوية فأخلوه وتركوه بما فيه وهرب صاحبه، فسكنه صارى عسكر. مسكين هو وجماعته. البيت كان حظه عليهم حظ نحس.

فلما دقت الكؤوسات، وقرعت الطبول، وسمعنا ضرباتها تصل إلى موضعنا عبر الطرف الآخر من البركة أدركنا أن صارى عسكر خرج من بيت الألفى ويشق السكة باتجاه دارنا.

عندئذٍ. ذهبت أنا وأمى والجوارى جميعًا لنكون فى الدور العلوى من المضيفة الواسعة، والمحجوب عنها بمشربيات كبيرة داير ما يدور، وهى المضيفة ذات القاعة الوسيعة بأزيد من كل القاعات فى الدور التحتانى، رحنا ننظر من فتحات المشربيات ما سوف يدور بالمضيفة عند دخول بونابرته ورجاله، وكان الآلاتية والمغنون والمداحون وأصحاب الطبول والمزاهر قد بدأوا يتخذون وضعية الاستعداد، فلما نفر فى النفير أدركنا وصول صارى عسكر بونابرته عند باب الدار، فاصطفت له جماعة من جنودهم كانت قد استبقته لموضعنا، وعزفت له بعضًا من موسيقاهم التى باتت غريبة وغير

مـألوفـة للآذان، ثم غنوا أناشـيـد العـسكر والجـيوش، فلما انتهـوا خطى ودخل خلفه جـمـعهم وكـثـرة من المـشـايخ والـتجـار وأعـيـان المدينة ولم يتخلف عن ذلك قبطى أو شامى أو فرنجى أو يهودى.

قصيرًا مربوعًا منفوخًا رأيته وهو يتقدم عساكره ولا أدرى لماذا تذكـرت الـديوك الشـركـسـيـة ذات الرقـاب العـارية والجلد الوردى والريش الباهت المنفوش والتى تربيها أمى عادة ضمن طيور أخرى وأنواع من الدجاج فى حظائر دارنا الخلفية. أمسكت أنفاسى قدر استطاعتى، وحاولت أن أكون رزينة، ثابتة كما تقول أمى، لكن ضحكة فلتت منى رغمًا عنى، فهددتنى أمى بأنها سوف تقرصنى من لباليبى قبل أن أنام إذا ما ندت عنى واحدة أخرى وهمست جاريتى مال فى أذنى: إرسى واعقلى لأن حريم الأكابر بدأوا فى الحضور.

رأيت أبى يهرول خلف بونابرته مع سائر الشيوخ، وهو يرحب به ويقوده إلى أريكة واسعة خصصت له فى صدر المجلس، وبدوا المشايخ لى مضحكين بعماماتهم الضخمة وعباءاتهم المثبت عند أطرافها فروات السمور وهى العباءات الواسعة التى يتباهون بها عادة، ويخصصونها للاحتفالات والتشريفات ومثل هذه المناسبات.

ظلت أمى تعددهم وتسميهم، بينما كانوا يتخذون مجلسهم بالمضيفة حول بونابرته وقد جلس أبى على يمينه وكانت أمى تعرفهم جيدًا بسبب حضورهم المكرور لدارنا، فبدأت تقول هامسة وهى تتفرس من فتحة المشربية، هذا الشيخ مصطفى الصاوى،

وهذا الشيخ المهدى، الشيخ موسى السيرسى، السيد مصطفى الدمنهورى، الشيخ محمد العريشى والشيخ يوسف الشبراخيتى، والشيخ محمد الدواُخلى وأعداد أخرى من الشيوخ ورجالات البلد، وكدت أقع على ظهرى من الضحك عندما رأيت عمة الشيخ السادات الكبيرة وهى تكاد تطير عن رأسه عندما تعثر بمركوبه فى شراشيب السجادة العجمى وهو يهم بالجلوس على واحدة من دكك المضيفة، مما جعله ينحنى وتتطوح العمة على رأسه لولا أن الذين حوله سارعوا إليه وأسندوه.

بدا لى أن المدعو بونابرته عصبيًا مستاءًا من أمر ما، كما بدت لى نظراته لا تخل من صلف ووقاحة، وكان يحول نظره بالمكان متأفّفًا مستعليًا، وكان السماط طويلاً ممتدًا على الجانب الآخر من القاعة، ووضعت عليه أطباق المقبلات من طرشى ومخللات وسلاطات وأطباق الضلمة والبوارد، ولم يكن ينقصه غير السواخن التى أوصت أمى بألا توضع إلا قبيل البدء بالطعام مباشرة حتى لا تبرد ويزول مذاقها، وقد وصت الشوربجية ألا يغرفوا الشورية إلا عندما تصل لحالة الغليان على النار.

كان الخدم والعبيد واقفين عند أقصى المضيفة حاملين الأباريق والطسوت ومناشف اليد الصغيرة حتى تقدم للحضور، فيغسل كل شخص فمه، ويتمضمض وكذا يديه بالصابون ويجففهم بالفوطة عقب ذلك، وكانت الشبك معدة للتدخين بعد الطعام لمن يرغب أيضًا.

لقد عنت أمى بالسماط عناية لا حدّ لها فوقفت على رأس الطباخين وهم يصنعون البيلاف حتى يخرج شهيًا متقنًا، رغم أنها كادت أن تفطس فى جو أبيب الساخن والملىء برطوبة النيل والتى تجعلها تصل بتلك الحبوب الصغيرة الحارقة فى جبهتها وقفاها والمسماة «حمو النيل»، خصوصًا وأنها مضطرة لوضع الحبرة على وجهها طوال الوقت حتى لا ينكشف أمام الطباخين والحلوانية، إذ كانت مصرّة على غسل الأرز جيدًا وعدة مرات قبل رميه فى مرق اللحم وهو يغلى، والتأكد من أن الزعفران والبازلاء والزبيب والسمن المقدوح والدارصينى والفلفل الأسود قد أضيفت بالقدر المطلوب.

كان الطباخون قد أعدّوا الخراف الأوزى الصغيرة وجهّزوها للشواء منذ مطلع النهار، وكانت عدتها عشرين رأس ضأن وعند تقديمها للأكل كانت مزينة بالورد الجورى والرياحين، مرصوصة بنظام فى صوان نحاسية واسعة وقد حوطت بفرد الحمام المحشى بالفريك والقلوبات والجوز، وكان جوار ذلك أطباق من الصينى استقرت بداخلها سمكات ضخمة من قشر البياض سابحة فى صلصات، إضافة إلى ما وضع فى أوانيه وأوعيته وطواجنه الفخارية من أرانب ودجاج محمّر وأطباق خضر الموسم المطبوخة وصنوف المحاشى والرقاق وفطائر محشوّة باللحم المعصج وغيرها. لم يعجبنى بونابرته وعنطزته ببدلته السوداء الواصل طرف ياقتها إلى مبتدأ ذقنه فهمست لمال: على أى شىء صارى عسكر متزرز، وأبى قاد له صوابعه العشرة شمع؟. فلكزتنى أمى

وكانت قد سمعتنى وأنا أقول ذلك؟ وقالت اتلّمى. بونابرته ناوى يخلع على أبيك فروة سمور ويقلده نقابة الأشراف. سكت ولم أقل شيئًا، لكنى كنت قد بدأت أشعر بالجوع بعد رؤيتى كل هذا الطعام الموضوع على السماط، وتمنيت أن أكون ذكرًا كأخى أحمد لأجلس مثله بينهم وآكل.

خلال ذلك كان الآلاتية والصيتة قد بدأوا فى الصدح بالتواشيح والمدائح ودق الأوتار، وذلك بعد أن تليت قبل الطعام ما تيسّر من آيات كتاب الله، فلما علت الألحان وجدت بونابرته مندمجًا وراح يقلّد المشايخ وبقية الرجال، فيحرّك رأسه ويهتز شمالاً ويمينًا، وكما يفعل الجميع، فلم أتمالك نفسى فأخذت أتمايل وأتقصع، وأهز أردافى حينًا وصدرى ورقبتى حينًا آخر ورحت أقلّد العوالم والغوازى هابطة بجسدى حتى يقارب الأرض محرّكة إياه بليونة بينما أستند إلى كفى وقدمى مثلما أراهن يفعلن عادة مما جعل أمى تصيح رغمًا عنها وتسبنى حتى أكف عن ذلك وأسكن وكنت أعرف أنها تخشى على ثوبى من البهدلة وتخاف أن تنفك عقدات شعرى وتفسد زينتى أو تنفرط اللآلئ المدلاة على جيدى.

وبينما هى فى قمة الضيق منى والنقمة علىَّ، إذ بخصى يأتى إلى موضعنا بالطابق الفوقانى للمضيفة ليبلغنا أن أبى يطلب حضورى وكذا أمى للسلام على بونابرته الذى يرغب فى ذلك وفى تقديم بعض الهدايا لنا.

دبت أمى على صدرها، وشهقت زوجات التجار والمشايخ اللواتى كن معها، فلما تمالكت نفسها مرة أخرى، هتفت بصوت خرج منها بالكاد وقالت: يا حومتى.

أما أنا فقد طرت من الفرح، وكدت لا أصدق أننى سأنزل وأصير بين الرجال لأسلم على صارى عسكر الفرنسيس، وأرى لماذا هو على هذه الهيئة من العنطزة والغرور.

أعلنت أمى أنه من المستحيل أن نذهب إلى تحت فهذا أمر غير مقبول، ولم يسمع بمثله فى كل البلاد من قبل.

وضح الخصى والذى كان وجهه ينضح بالبلادة والبرود:

ـ لن ينزل أحد إلى تحت. سيدى قال إنه سيطلع لفوق مع صارى عسكر ويسلم عليكما فى القاعة القبلية التى فى آخر الدهليز.

ـ آه. قاعة الحية. ولو.

بدت غير مقتنعة بفكرة السلام على بونابرته، وقالت ما معنى هذا؟ وما ضرورته؟، ولأى غرض يرغب فى السلام علينا نحن الحريم؟

ردت زوجة السيد أحمد المحروقى وهى صديقة لأمى جدًا وصاحبتها الروح بالروح: ـ

ـ الفرنسيس لا فرق عندهم بين الرجال والحريم ولا يعرفون الحياء مثلا. لكن طالما الشيخ سيكون معه، فما المانع؟.

كلمة وردّ غطاها ويا دار ما دخلك شر.

قامت أمى من مطرحها وأمرت الخصى ومال أن يذهبا سريعًا ويعودا بالشموع والقناديل إلى القاعة القبلية، وبدت مضطربة جدًا وأمرت أن يأتى الخدم والفراشين بكل لوازم الضيافة من أطباق الكعك المعمول بالسكر والخشاف والفواكه وأباريق العصائر والشربات والماء المضاف له روح الورد.

عند آخر دهاليز الطابق الفوقانى توجد قاعة فسيحة تطل على الفناء الخارجى للدار، وتقع مباشرة فوق دالية العنب، كانت معزولة بقدر ولا تستخدم كثيرًا، وقد زرع البستانى دالية كروم خصيصًا لتحجب الشمس عن هذه القاعة التى تكون حارة جدًا وقت الصيف. وفى أحد الأيام شاهد أحد الخدم شيئًا طويلاً ممتدًا يتلوى بالقرب من الشباك المطل على الدالية، فخاف وجرى ليخبر أمى، وحدث هرج ومرج بكل البيت وصرخت الجوارى والحريم عندما تسامعن بذلك وطلع لهذه الغرفة بعض الفراشين بالعصى والشوم للبحث عن الثعبان والإمساك به وقتله، ولما تعبوا دون أن يجدوه امتنع الجميع عن دخول هذه القاعة المجهزة بفرش حسن، خشية أن يكون الثعبان مختبئًا بين طراحات الكنب الممتد إلى جانبْ حوائطها جميعًا داير ما يدور ثم أنه أُرسل لطلب الرفاعية المختصين بالحيات والعقارب فأتوا برجلين، ما إن دخلا القاعة حاملين جراباتهما القذرة وهما حافيان، حتى راحا يحوقلان ويبسملان ويقرآن بعض من آيات الله، ثم أخذا يجوبان ببصرهما فى المكان مع حركات بالأيدى والصوابع، وإشارات معلومة، وكل مَن فى الدار وقتها وقوفًا خلفهما مبهور الأنفاس فى

انتظار ما سوف يكون، ثم إنهما أخذا فى تشمم الهواء بقوة وراحا يتمتمان بما هو غير مفهوم من الكلام، وبعد وقت قصير بصقا على الأرض وانحنيا ليلتقطا على عصاة بيد واحد منهما حية طولها يزيد عن سبعة أشبار ذات لون أسود ويدخلانه فى جراب أحدهما، ومن يومها صرنا نطلق على هذه القاعة، قاعة الحية.

دخلنا غرفة الحية بعد أن جهّزها الخدم بما أمرت به أمى، وجلسنا ننتظر صعود أبى وبونابرته، وبدأت أمى تهمس بنصائحها: إياك أن ترفعى عينيك من على الأرض، وإياك والضحك على أى شىء. وكنت وقتها أفكر فى الديك الشركسى وأحاول مسك نفسى عن الضحك.

هو والترجمان وأبى دخلوا علينا، بينما كنت أداعب قطتى الرومية عنبر التى أتت إلى قبلهم بقليل ونطت لتجلس إلى جانبى على الكنبة الواسعة ذات الطراحات الحريرية الكبيرة. انحنى عند دخوله محييًا إيانًا، ثم اقترب ومد يده ليداعب القطة، فشعرت أنه ألطف مما كنت أظن عندما رأيته عن بعد. قال كلامًا بلسان مِلته نقله لنا المترجم وهو أن صارى عسكر يشكركم على العشاء والضيافة وكل شىء. وهو يريد أن يقدم لكما بعض التذكارات كدليل محبة من دولة الفرنساوية.

ثم أن المترجم فتح صندوقًا بيده وقدمه لصارى عسكر، فأخرج من هذا الصندوق الجميل المكسى من جوّاه وبرّاه بالمخمل الأحمر قلادة ذهبية قدمها لأمى، وسوارًا من الفضة المشغولة لى. لكن

هذا لم يكن كل شىء، إذ قدم لى ولأمى ثلاثة قطع من الجوخ موضوع بعضها فوق بعض، مدورة فى قدر الريال سوداء وحمراء وبيضاء، بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة ـ وبعد أن برطم صارى عسكر بلغته، قال الترجمان إن هذا يسمى الجوكار ويوضع عند الصدر فوق الملبوس وهو رمز الفرنساوية وتقديمه لنا دليل احترام من بونابرته والفرنسيس لأهل الدار وجماعة أبى.

لاحظت خلال ذلك أن بونابرته كان يتأملنى بين الحين والحين ويتفرس فى ملابسى ومصاغى، وكأنه لم ير شيئًا مثل هذا من قبل، أو كأنه صبى صغير يتأمل عروسة حلاوة معمولة بالسكر كالتى يعملونها فى المولد.

بعد ذلك عرفت لماذا ينظر إلى هكذا، فنساء الفرنساوية ملابسهم بسيطة ذات ألوان هادئة مكتومة، وقلما يضعن الزينة على النحو الذى نفعله نحن بنات المسلمين، فلا يزججن حواجبهن ولا ينزعن الشعر عن أجسادهن ولا يقربن المصاغ إلا قليلاً. حلق صغير فى الأذن، أو عقد قصير من اللؤلؤ حول الرقبة، وقطع صغيرة من الأحجار الكريمة فى خاتم واحد بأصبع من أصابع اليد.

ارتبكت قليلاً بسبب نظراته وتأمله لى، لكنى استمتعت بسبب ذلك أيضًا وداخلنى شعور جديد لم يتطرق إلى من قبل وفرحت لأن هناك مَن انتبه لوجودى، وأحسست أننى أنثى ينظر إليها وتلفت

الانتباه ولست عودًا من القصب مثلما ترانى أمى ويرانى الجميع حتى ولو لم يقولوا لى هذا.

ابتسمت رغمًا عنى، ورفعت عقد اللؤلؤ المدُلى من رقبتى ورحت أعبث به وأداعبه بشفتى وأطراف أناملى. أبى ظل صامتًا يرقب ما يدور ويرتسم على وجهه ذلك التعبير المبهم اللامبالى الذى أراه عادة ولا أفهم معناه أبدًا.

انتهى اللقاء بعد دقائق معدودة.

فرحت بالسوار الفضة الذى تبيّن فيما بعد أن شعار جمهورية الفرنسيس مصورًا عليه، بينما تنفّست أمى الصعداء وكأن كابوسًا كان يجثم على صدرها ورفعت الحبرة عن وجهها ورقبتها وكأن قطعة القماش الصغيرة هذه هى المشكل فيما حدث منذ قليل. بدا وجهها بعد ذلك محتقنًا جدًا ولونه أقرب للون سارى عسكر، وبدأ العرق يتصبب من جبهتها واعتراها ما يشبه كرشة النفس، فأسعفتها ببعض الماء وهمت مال لتعود إليها بمروحة لتروح بها عليها، وبدت وكأنها توترت بعد لقاء بونابرته أكثر مما كانت عليه قبل ذلك، ورمت الجوكار على الأرض قائلة: بلا نجاسة مما جعل قطتى عنبر والتى حضرت المقابلة وظلت جالسة طوال الوقت إلى جوارى تظن أن أمى تداعبها وتدعوها للعب، فنطت على الجوكار وحاصرته بيديها.

ـ هل وصل بنا الأمر إلى هذا الحد؟. قالت أمى.

لم أرد. فاستأنفت:

- ما معنى هذا؟. وما كانت ضرورته؟. وهل يجب أن يجارى أبوك الفرنسيس طوال الوقت؟ وهل كان بونابرته سيعلقه على خازوق لو لم يوافق على أن نقابله؟.

جاءت بعض من ضيفاتها بسرعة إلى قاعة الحية بعد أن بلغن نزول بونابرته لتحت مرة أخرى، كن متلهفات لمعرفة ما جرى بيننا وبين سلطان البلاد الجديد، ورحن ينظرن هداياه بين معجبة ورافضة ومستغربة من ذوق الفرنسيس وبخلهم، فالقلادة رفيعة والوردات الصغيرة المدلاة منها بلا فصوص ولا تساوى شيئًا كما أعلنت واحدة منهن، وجربت واحدةبأسنانها سوارى، لتختبر هل هو من الفضة الخالصة أم من النحاس المطلى بالفضة، لأن الفرنسيس لا ذمّة ولا عهد لهم.

سألوها عن شكله ومنظره عن قرب، وهيئة ملابسه ولماذا لا يضع فرو السمور على أكمام رداءه كما يفعل المشايخ عندنا وتصبح معالم النعمة والقيمة بادية عليه.

- طينته واقفة ومعدوم القيمة وشكله ولا يساوى بارتين فى سوق العبيد.

قالت أمى.

على عكسها وجدت ما حدث ظريفًا جدًا وأن بونابرته واحد لطيف ولا بأس به، وشكله عن قرب لا يخل من وسامة. أخذت أداعب قطتى بالجوكار فأضعه على رأسها حينًا، أو عند قدميها حينًا آخر ورحت أستمع إلى ما تردده أمى دائمًا بخصوص

الفرنسيس: كفار. كلهم نجاسة. لا يستحون من كشف العورات، إذا دعت أحدهم الحاجة قضاها فى أى مكان. لا يعرفون الاستنجاء ولا الاستجمار، وإلى آخر هذا الكلام الذى سمعته منها عن الفرنسيس.

لم أعبأ لما تقول، ولم أكن مهتمة بنجاسة الفرنسيس، كنت فقط سعيدة ومنتشية بنظرات بونابرته لى.

عرفت فيما بعد أنهم قدموا له بعد وصوله إلى بر مصر ست جوار حسان، لكنه لم يعجب بأى منهن بسبب بدانتهن فصرفهن جميعًا دون أن يمسسهن. كان إعجابه بالسمراء عود القصب التى هى أنا، لا يفوقه أى إعجاب آخر اللهم إلا إعجابه بتلك المرأة الفرنساوية التى تركها ببلده والمسماة چوزفين، كما قالت لى الست الشامية التى عرفتها بعد ذلك، وأعلمتنى أنها سمعته من بعض نساء الفرنساوية اللواتى تداخلت معهن، وهن النساء اللواتى تبعن رجالهم من عسكر بونابرته وجئن معهم من بلادهن البعيدة بالمراكب إلى بر مصر. وكانت بعض النصرانيات الأورام والشاميات المقيمات بمصر المتزوجات من تجار قد تداخلن مع هاتيك الفرنسيس من النسوة لأنهن يعرفن رطانتهن وكانت بعضهن تترجم فيما بينى وبينه بالبداية. فى الحقيقة فإن إعجابه بى لم يقابله إعجاب من طرفى. كنت أتمنى رجلاً على هيئة أخى أحمد له عينان واسعتان بلون الليل وحاجبان معقودان فوقهما. لا لم يكن بونابرته الرجل الذى أحلم به، لكنى كنت سعيدة ومنتشية لأن

صارى عسكر اختارنى أنا، دون كل الحريم من الحرائر والجوارى والعبدات فى بر مصر. أعجبت بوسائله وطرائقه فى التعامل مع أكثر من أى شىء آخر. لم أتمن أن أنجب منه عيال، ولم أتمن أن أعيش معه إلى الأبد، لكنى كنت مزهوّة، منتشية لأن بونابرته اختارنى، وكأننى انتصرت وفزت فى معركة أو كأننى أثبت لأمى خطأ ما تظنه بى، فأنا لست ممصوصة كعود القصب، وها هو رجل يُعجب بى، وأى رجل.. بونابرته صارى عسكر ذاته. كان يعاملنى برقّة، ينحنى لى ويقبل أناملى وكتفى ويحيط خاصرتى بحنان عندما يضمنى، ولم يكن خشنًا عجولاً حين يصلنى. شعرت معه بأننى مثله يحق لى ما يحق له ونحن نعيش أوقات المتعة، وكنت أتذكّر خلال هذه الأوقات تحديدًا ما اعتادات أن تقوله لى أمى:

إياك أن تظهرى لرجلك يومًا أنك راغبة فيه، أو تطلبيه مثلما يطلبك، أو تعبرى عن متعتك معه خلال وصالك.

علق بونابرته على طهارتى. لم يقل لى شيئًا بهذا الخصوص، لكنى كنت ألاحظ استغرابه وهو ينظرنى. المرأة الشامية هى التى قالت لى إنه سأل بعض الفرنسيات عن ذلك وأنهن قلن له إن المسلمين يفعلون ذلك للبنات والذكور لأنها نظافة.. فضحك.

هل أحبنى. لا أعرف. أظن أننى كنت أسليه أكثر من أى شىء آخر، وأروح عنه أشعر وهو يعاملنى أننى لعبة يتسلى بها أحيانًا، كان يقول كلامًا بلغته ولا أفهمه. يقول كلامًا بهذه الرطانة ثم يضحك، ولم أكن أفهم من كلامه إلا كلمة (وى)، وكلمة (نو) التى

عرفتها من الست الشامية، والتى قالت لى مرة إن الفرنسيس يقولون دومًا، إذا رغب الإنسان فى أن يعرف مصرًا من الأمصار فعليه أن يعرف نساءها وطعامها.

فى بعض الأوقات كان ينادى على ترجمانه ليبقى معنا وينقل الكلام بيننا. فى مرة قال لى: لماذا تضفرين شعرك؟ أتركيه مفرودًا على ظهرك. وفى مرة أخرى قدم لى جوارب من الموسلين المصنوع فى ناحية عندهم اسمها ليون، وقال لى أن أرتديها بدلاً من تلك السراويل القصيرة التى اعتدت أن أرتديها تحت القميص مثلما كل الحريم فى بر مصر.

أبى هو الذى قدمنى له بعد أن لاحظ ميله لى أثناء حضوره ليلة المولد بدارنا، كان ذلك عقب حضور جماعة كبيرة من أولاد الكتاتيب والفقهاء والعميان والمؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من المرضى بالمارستان المنصورى وأوقاف عبد الرحمن كتخدا وشكوا إلى أبى قطع رواتبهم وخبزهم لأن الأوقاف تعطل إيرادها واستولى على نظارتها النصارى القبط والشوام وجعلوا ذلك مغنمًا لهم فطيب أبى خاطرهم وواعدهم على حضورهم الديوان وإنهاء شكواهم والتشفع لهم.

جاء الشيخ إلى أمى بعد انفضاض ذلك وطلب منها أن تجهزنى للخروج معه ومع أخى أحمد، لأن صارى عسكر طلب أن يأتى أبى إلى العيد الذى سوف يعمله الفرنسيس بالبركة، فلما سألته أمى: «وهل للكفار أعياد مثلنا؟». قال لها إن هذا العيد إنما بسبب قتل

سلطانهم وإزاحته من ملكه، فقد جعلوا لهذا الحادث عيدًا وتاريخًا وهو موافق الاعتدال الخريفى عندما تنتقل الشمس لبرج الميزان، وأن الفرنسيس وبأمر من صارى عسكر. نقلوا أخشابًا وحفروا حفرًا، وأقاموا صاريًا عظيمًا بآلات وبنوا بوسط بركة الأزبكية وردموا حوله ترابًا كثيرًا علوه مقدار قامة وعملوا فى أعلاه قالبًا من الخشب المحدد الأعلا، المربع الأركان، ولبسوا باقية على سمت القالب قماشًا ثخينًا طلوه بالحمرة المجزّعة، وعملوا أسفله قاعدة نقشوا عليها تصاوير سواد فى بياض وصنعوا مقابل باب الهوى شبه بوابة كبيرة عالية من خشب مقفص وكسوها القماش المدهون مثل لون الصارى، وعلى القوصرة طلاء أبيض وبه تصاوير بالأسود ومصور فيه مثال حرب المماليك المصرية معهم وهم فى شبه المنهزمين بعضهم واقع على بعض، وبعضهم متلفت خلف ظهره، وعلى موازاة ذلك من الجهة الأخرى بناحية قنطرة الدكة التى يدخل منها الماء إلى البركة مثال بوابة أخرى على غير شكلها وأقاموا أخشابًا كثيرة منتصبة مصطفّة منها إلى البوابة الأخرى شبه الدائرة متّسعة محيطة بمعظم فضاء البركة بحيث الصارى الكبير فى المركز وربطوا بين تلك الأخشاب حبالاً ممتدة وعلّقوا بها صفين من القناديل وتماثيل وبين ذلك حراقة بارود.

صمتت أمى قليلاً ثم قالت: لكن هذا لا يجوز. أذهب يا سيدى أنت وأحمد، أما هى فلا. هل سمعت بمثل هذا من قبل؟ هل هى جارية مجلوبة من الجوارى وليست حرة بنت حرة، من صلب ذوى الحسب والنسب؟. السلام وسلمنا على صارى عسكر، أما الخروج

لعند عيدهم فهذا ما لا يجوز، وهل تعوّدنا على ذلك من قبل إنها جرسة وفضيحة خروج ابنتك إلى هذه المساخر، وفعل ما لا تفعله بنات الناس.

قاطعها أبى.

الزمن أصبح غير الزمن، لن تكون الحرمة الحرة الوحيدة هناك، بل ستكون وسط جمع من أفضل النسوان بنات الخدور وساكنات الدور والقصور، وستكون هناك أمة لا إله إلا الله كلها إضافة إلى زوجات كبار رجالات الفرنسيس وعساكرهم، ثم أن طلبها وطلب أحمد بالاسم هو تشريف لى، ولعلمك فإن خروج الرجال مع النساء هو من الأمور المعتادة عند الفرنسيس، ورغم ذلك فلسوف يخصصون مقصورة خاصة للحريم ستكون على مبعدة من أماكن الرجال وهى ستجلس فى غاية الأدب والاحتشام ولن يدوس مخلوق عَلى طرف لها، لأن الفرنسيس أعدوا كل شىء غاية فى الدقة والنظام.

- سيدى. أنا لا أحبها تتبرّج وتختلط بنساء الفرنسيس وأنت تعلم أكثر مما أعلم عنهن، وخروج غالبيتهن عن الحشمة والحياء، وأنهن تمشين مع رجالهن بالشوارع وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفستانات عاريات الشعور يرفعن أصواتهن بلا خشية، يضاحكن المكارية والباعة وهوام العوام، ويمازحن الحرافيش وأفعالهن كلها خطأ، والعيب، جميعه راكبهن من أساسهن وحتى رءوسهن، وأنا أربأ بابنتى أن تختلط بهؤلاء الناس، وأنت تعلم أن مهرجاناتهم فيها

أرباب الملاهى والبطالات ورعاع العالم من الحرافيش وأكلة الحشيش وملاعبى القرود والحواة والنساء الرقاصات وأراذل الخلابيص. لم أكن قد رأيتها تكلمه على هذا النحو من الشجاعة والجرأة، وتقارعه بالحجج والأسانيد. استأنفت كلامها فقالت:

ـ أنت تقول الزمن أصبح غير الزمن؟. مَن قال هذا، سلطنة الفرنسيس هذه لن تكون إلا هوجة لا بد وتروح لحال سبيلها. الأمراء بعد كل الزمن الطويل، راحوا، ولكن من طاح بهم، قادر على إرجاعهم، والله على كل شىء قدير. وهم فى النهاية لا من طينتنا ولا من ملتنا، يعنى عمارهم فى بلادنا لن يدوم. بص يا سيدى الشيخ لقدام، ولا تجعلنا سيرة ومضغة فى الأفواه، وأنت تعلم أن البنت سمراء سوداء، ومحسودة، وحتى تاريخه لم يتقدم لها خاطب، ولا نظرها مرة واحدة عابر. أطلب من الله أنه يسترها، ويحط فى طريقها رجل. ثم إنها انحنت وقبلت يده بينما شرت الدموع من عينيها وقالت:

ـ وغلاوة سيدنا النبى عندك، وحياة أمك بنت الأكابر وسليلة الحنفية أن تتركها ولا تأخذها معك المهرجان. يا عالم. يمكن تقوم عركة، ولا تصير كبسة، وربما هجم الهجامين والمناسر وخطفوها، وساعتها نندم على ما كان، لأنها فى النهاية ولية، وعاشت جوّه الدار مخفية، لا حول ولا قوة لها مثل الشباب والرجال.

ظهرت مال فجأة على باب قاعة الحية، حيث كان أبى وأمى يتجادلان، أطرقت فى الأرض وهلى تلهث وبدون أن يؤذن لها بالكلام قالت: ـ

- واحد فراش رجع من السوق، قال إنه شافهم عمالين شيل ولم فى الكلاب الميّتة وحطها فى الكيمان وأن الفرنساوية طافوا امبارح بالليل بالأسواق ومعهم مقاطف بها لحوم مسمومة فأطعموها للكلاب، فمات منهم جملة كثيرة، بسبب أن الكلاب كانت تنبح عليهم وتجرى وراءهم وتعضهم. الحمد لله.

كانت مال قد عقرها كلب منذ عدة سنين أثناء خروجها للسوق، وهبر جزءًا من ربلة ساقها، وبقيت محمومة بعدها عدة أيام حتى أشرفت على التلف، لكن الله ستر ورد إليها عافيتها، ما عدا أنها ظلت ترتعب ويرتج جسمها إذا تنبهت إلى إنسان أو شىء على حين غرة وهى ساهية، لذلك كانت فرحة بالقضاء على الكلاب ولم تصبر حتى يخرج أبى من الحريم فتنبأنا بما أنبأتنا به.

قالت أمى:

- حتى الكلاب لم يتركوها فى حالها، طيب يتشطّروا على الفئران أولى، وهى سارحة فى كل ناحية ومبهدلة الأكل والحواصل، ولا نافع معها قطط ولا غيره. الفرنسيس أفعالهم كلها خيبة، ومصدرين أعمالهم لأهيف الأمور. بكرة ربنا ينتقم منهم، ويا خوفى أن أرواح الكلاب تطلع بالليل ويحصل منها شر للناس.

عادا إلى ما كانا فيه من مهاترات قبل أن تقاطعهما مال فأضافت أمى:

- لا يجوز أن تطاوع الناس الفرنسيس فى كل شىء وتوافق لهم على مطالبهم، لأنهم ولا يساوا شىء بالنسبة لنا. انفجر أبى فيها

وكأن شدة انتقادها للفرنسيس، إنما هو انتقاد وانتقاص له، فهو معجب بأحوالهم وطالما لمح بذلك وهو يحكى لأمى أحيانًا عن طرائقهم السعيدة فى الحياة ومعاملتهم اللينة للناس، وبدا عصبيًا وهو يرد عليها فقال:

- وما أدراكى أنت الحرمة بأحوال الفرنسيس؟، وهل تعلمين عنهم أكثر منى؟. هؤلاء الناس لهم أفعال بطّالة، وأعمال جيدة لم نسمع بها ولم نر مثلها من قبل لا مع العثمانلية ولا مع أمراء المماليك، صحيح أنهم حرقوا البلاد ونهبوا العباد وعملوا شناعات فى قتالهم للمماليك وعساكرهم، ولكن أنظرى ما فعلوه منذ أيام، لقد قطعوا جانبًا كبيرًا من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجب، وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى، وقطعوا بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلى وأشجار الجسر أيضًا والأبنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقس وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقًا ممتدة من الأزبكية إلى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية على خط مستقيم من الجهتين وقيدوا بذلك أنفارًا منهم يتعاهدون تلك الطرق ويصلحون منها ما يخرج عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافر الخيول والبغال والحمير وفعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن وهم فى هذا لم يسخروا أحدًا فى العمل، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهيرة ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول، المساعدة فى العمل وقلة الكلفة. وكانوا

يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف يملؤها الفاعل ترابًا أو طينًا أو أحجارًا من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقّة. وما لى أنا وكل هذه الحكاية الملتوتة. قالت أمى:

- أنا أحكيها لك لتفهمى. ليست كل أفعالهم ردية. هذا هو المقصود.

استمر الجدل. قالت:

- أفعالهم شنيعة. ألم يشوهد الكثير منهم يتغوّط ويمسح بأوراق المصاحف ويرميها ملطخة فى الطريق ومحل النجاسات؟. إنهم لا يستنجون بالماء البتة وجليلهم وحقيرهم يستعمل ما وجده من الأوراق. ألم تحك لى أن بعض الناس دخل دارًا من دورهم فوجد باب المهنة مسنودًا بمصحف كبير، فأخذه وفتحه فوجده ختمة شريفة مكلفة فتأثر واغتم وطلب أن يفتديه بدراهم فامتنع صاحب الدار من بيعه إلا بمبلغ كبير فسعى الرجل حتى استرضى خاطره واستنفذ الختمة، ثم على رأى المثل: «أسمع كلامك أصدقك، أشوف فعالك أتعجب"، فهم يطالبون الناس بوقود قناديل سهارى بالطرق والأسواق، وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل، وأن يلازموا الكنس والرش وتنظيف الطرق من الأوساخ والأوخام والقطاط الميتة وهم غاية فى القذارة فى بيوتهم وأزقة مساكنهم وكثرة

التـراب والوسـخ وما يخـتلط به من ريش الطيـور وفـضـلات مـآكلهم ومـصـارين الـحـيوان ورائحـة شـرابهم وحـمـوضـة مـسـكراتهـم وبولهم وغايطهم. بلا قرف.

تذكرت فجأة.

- الشـبكجى أعـطاك شُبك كل شـىء كـان. الـقـصـبـة ضـعـيـفـة. والغليون كله على بعضه ولا يساوى. أنا قلت أقول لك حتى لا يتعكر مزاجك لما تسحب منه الدخان.

- طيب. ولكن جهزى زينب للخروج عند الفرنسيس كما قلت لك. ظلت ممانعة، لكنها رضخت فى النهاية فهى لا تملك غير الإذعان، فعـقـابهـا إن خـالفت رأيه لن يكون يسـيـرًا، فـقـد يبـدأ بهـجـرهـا فى الفراش، وقد ينتهى بأبغض الحلال لو اضطر الأمر.

ونحن فى أحـسن زينة. وكمـا يليق بأمـثالنـا من مـسـاتيـر الناس، ذهبنا: أخى أحـمد وأبى وأنا أسـير خلفهـما يتقدمنا قـواس أبى كمـا هو المـعـتـاد، ليـهش الناس وأصـحـاب المطالب عنه مثلمـا جـرت الأمور دومًا مع أمـثاله من عليـة القـوم والمـشـايخ، فلمـا وصـلنا إلى مكان المهرجان، كانت أمم من الناس هناك، ولا بك مِلة يا مصر إلا وكانت متجمعة عند الفرنسـيس. قبط وشوام وعـرب وأروام وطليان ومـسلمـين، وكـانت هنـاك جـملة من النسـاء يجلسـن فى مـقـصـورة مـخـصـوصـة من المـقـاصـيـد أشـار أبى أن أذهـب إليهـن وأبقى إلى جـانبهن حتى يأمرنى بالحـضـور إليه مـرة أخـرى، ثم إنه التفت إلى واحـد من كـبيـر القـبط وهو المـعلم جـرجس الـجـوهرى والذى رأيتـه

بدارنا مرارًا مع قبط آخرين فى كثير من المناسبات وأيام العيد والموالد، وكان معه جملة من النصارى مثله الذين يرتدون ملابس الافتخار، بينما لبس المعلم جرجس كركه بطرز قصب بإزرار، وتعمم كما الذين معه بعمائم كشمير.

الحقيقة كنت غاية فى السرور والانبساط، واعترانى شديد الانبهار خصوصًا بنساء الفرنسيس وهن يرتدين الفستانات الحريرية الملونة والأقمشة الأخرى الرقيقة من الحرير والشيت والبفت الخفيف، ويتحزمن بأحزمة رفيعة فوق الفستانات، حتى يظهر الخصر رفيعًا، ويبرز الردف كثيفًا.

وكنت ألحظ القبعات الجميلة المُظهرة لشعورهن المعمولة بنظام، وأجدأنهن لا يرخونها مثلما نفعل نحن بنات المسلمين، بل يجمعونها فى وسط رءوسهن، وبعضهن تشبك فيها مشطًا يكون عادة من العاج، أو العظام الأخرى العزيزة المرصّعة بفصوص الألماس، كما أن منهن من تكشف الرأس إلى عند ما فوق الثدى وبالمجمل هن يخلعن عن أذرعتهن.

وقد تعجبت لأنهن لا تعرفن الخلاخيل، ولا تضعن أساور ذهبية عديدة كما نفعل نحن من بنات المسلمين.

تمنيت للحظات أن أكون بيضاء وشعرى بألوان الذهب كما هى شعورهن، لكنى سرعان ما تناسيت رغبتى هذه، إذ بدأت أنتبه لجنود الفرنسيس وهم يدقون الطبول ويشرعون فى عمل المعزوفات بنظام. كان بعضهم من الخيالة الراكبين والبعض الآخر

يقف على الأقدام، وجميعهم متزيين بأزياء من الأحمر والأزرق معمول بها أزرار كثيرة عند الصدر والأكمام من النحاس الأصفر الملتمع تحت الأضواء. وكنت أقارن بين هيئة هؤلاء الجنود بملابسهم المحبوكة، وسراويلهم الضيّقة على الساقين، وبين ما يرتديه رجالنا ومشايخنا من ملابس طبقة فوق طبقة، وعمائم ضخمة واسعة، فأتعجب من اختلاف الخلق فى شئونهم وطرائق لبسهم وذوقهم وما يرغبون. حمدت الله أن ما يعزفونه من نغمات، لم يكن من النوع المستوجب للرقص حتى لا أفقد ملكة التحكم فى نفسى، بل كانت نوبات العزف والدق من ذلك النوع المستوجب للتحميس والذى يستخدمونه عادة عند الحرب والضرب.

وكانت بسطًا كثيرة وسجادات، قد فرشها الفرنسيس أسفل الصارى الكبير الموضوع بوسط الأزبكية، وبدأت عساكرهم فى عمل هيئة ميدانهم، وصورة حربهم، فضربوا البندق والمدافع، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفًا حول ذلك الصارى وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم لا يدرى معناها إلا أهلها، ثم قاموا وانفض الجمع ورجع صارى عسكر إلى داره، وكان أبى قد أرسل إلىّ أن أذهب مع النسوة الحاضرات إلى منزل الصارى لأنه سيمد سماطًا عظيمًا للحاضرين من الرجال والنساء، فامتثلت لأمره وكنت فرحة وصرت إلى جانب واحدة من أورام الشوام جلست بجانبها وقت الفرجة فسألتنى عمن أكون، فلما عرفت أننى بكرية أنتمى للبيت البكرى هشت بوجهى ولاطفتنى، وهى تثنى على زينتى وعمامة رأسى.

أثناء مد السماط والذى خصص للحريم واحدًا مخصوصًا مثلما كانت المقصورة كانت الغروب قد أوشك، فأوقدوا جميع القناديل التى على الحبال والتماثيل والأعمال التى على البيوت، وكل ما يصلح للإضاءة وعند العشاء عملوا حراقة بارود وصواريخ ونفوط وشبه سواقى ودواليب من نار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل، واستمرت القناديل موقدة حتى مطلع النهار كما قال أبى بعد ذلك، وفى اليوم التالى فكوا الأحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة، وبقيت البوابة المقابلة لباب الهوى والصارى الكبير، وتحته جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلاً ونهارًا من عساكرهم لأنه وكما قال أبى أيضًا وهو يحادث أخى أحمد، شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم التى كانت أمى تدعو الله دومًا بزوالها من جميع الأرض.

كان السماط المخصص للحريم والذى مد بدار بونابرته والتى هى دار محمد الألفى بيك فى الأصل كما هو معروف للجميع من أفخم الأسمطة التى رأيتها بحياتى. كانت الأطعمة لذيذة وموضوعة فى صحونها وأطباقها فى قطع وأحجام صغيرة، تفتقد الكبر والضخامة وقد رصت بنظام بديع، وتم الأكل بالملاعق والشوك والسكاكين لكل واحدة ما خصص لها منها ولاحظت أن نساء الفرنسيس لا تأكلن بصوت مسموع ولا تتحدثن والطعام بأفواههن وكانت العصائر مقدمة مع الطعام ولكن لاحظت أن بعض نسوة الفرنسيس وكذلك الأورام والسيدة الشامية يشربن مشاريبًا مع الأكل، فلما سألت تلك الشامية وقد كانت تجاورنى قالت:

ـ إنه النبيذ. جربى.

ثم أنها صبت فى كأس موضوع أمامى مُخصص لى بعضًا قليلاً من زجاجة فلما ارتشفتها وجدت طعمه فى البداية لاسعًا لاذعًا وشعرت بقدر من الخفة وفقدان الشعور شيئًا فشيئًا ولم أستلطفه فنالت الشامية، لما عبرت لها عن ذلك:

ـ طيب.؟. هه؟. يُقال إن أباك يشربه كل ليلة.

لم أرد، بل أكتفيت بالابتسام وانشغلت بالنظر إلى جوانب تلك المضيفة المتسعة حسنة الصنع ذات الأرضيات المرخمة برخام مجذع بالصفرة والخضرة على نحو لم أر مثله من قبل، وكنت أتأمل تلك الأرائك والكراسى المذهبة على طريقة الفرنساوية المخالفة لطرائقنا فى الرسم والتطريز، بينما أمضغ الطعام الذى استسغت بعضه ولم أستسغ مذاق العديد من أنواعه. كانت الكراسى بعضها كبير وبعضها صغير وبعضها متوسط الهيئة، وقد صفت إلى جوار بعضها طاولات من هيئتها بأحجام معلومة، أما الحيطان فقد رحت أتطلع إليها وأنا أتعجب من تلك التصاوير المزينة لها والتى لم أر مثلها ببيوت المسلمين قط، ومنها تصوير يصوّر كسرة المماليك على يد الفرنساوية فى معركة انبابة، فلما تأملتها وجدت بها عركة شديدة بين الطرفين، يستبين منها مقتول ومجروح ومكسور ومنازع، وصارخ وضارب، ومستل للسيف أو مسدد بالبندق، فعجبت منها أشد العجب وكأن لا ينقص من بها إلا النطق والكلام، والأصوات الممكنة من كل ذلك والمسموعة بالآذان.

بعد فروغنا من الأكل، قدمت لنا القهوة وأنواع من الحلويات اللذيذة التى لم أعهدها من قبل ومنها نوع عندما وضعته بفمى، ذاب وتلاشى، بينما أستشعر وكأنى دخلت الجنة ذاتها وقد قيل لى إن اسمه الشكلاطة ولذاذاته تبقى حينًا ولا تزول من أطراف اللسان.

مضت كثيرات من النسوة بعد ذلك مباشرة وبقيت أنتظر إذن أبى لى بالذهاب والعودة بصحبته إلى دارنا عند الطرف الآخر من البركة، وظلت معى تلك السيدة الشامية وبعض الفرنسيات اللواتى أخذن يسألن عن عمرى، فلما قلت لهن ستة عشر سنة ضحكن وتغامزن فيما بينهن وكانت السيدة الشامية التى تعرف رطانتهن تترجم فيما بيننا، ثم إنها نقلت لى على لسان واحدة من الفرنسيس إننى يجب أن أتعلم الفرنسية لأننى سوف أحتاجها كثيرًا واقترحت أن تقوم بتعليمى تلك المرأة الشامية ولم أدر وقتها ماذا أقول.

فجأة، دخل علينا بونابرته، وكان قد مرّ على آذان العشاء ساعة أو أكثر، فحيّانا جميعًا ثم أخذ يحادث الفرنسيات بلغته وقتًا، وكنت أثناء ذلك قلقة لأن أبى لم يرسل مَن يطلبنى لأعود إليه، ويبدو أن بونابرته لاحظ ذلك، إذ انتقل من موضعه الذى جلس عليه، وقعد إلى جانبى على الأريكة التى كنت أتوسطها وهى واسعة مكسوة بالطنفسة الزرقاء، ثم أنه ابتسم آخذًا يدى بين يديه. وراح يلثمها بفمه، وكانت الشامية قد انصرفت قبل ذلك وقد أخبرتنى على لسان بونابرته أنه يرانى جَميلة جدًا ويعجبه سمار بشرتى للغاية.

بدأ في معانقتي وتقبيل فمي ووجنتي ورقبتي وجيدي، وبدأ يتحسس صدري وكنت مصدومة خجلة. ملتذة، وتمنيت أن ترى أمي «عود القصب» التي أنجبتها وهي على هذى الحال.

وهكذا بدأت علاقتي ببونابرته.

بقيت أتردد على داره مع مال جاريتي بين الحين والحين بحجة أن الشامية سوف تعلمني الرطانة الفرنساوي وهي لا تغادر منزل بونابرته خشية عليها من فتك هوام العوام الذين قتلوا زوجها النصراني لأنه فتن عليهم. ودل الفرنسيس على عدة أماكن كانت للأمراء المصريين وبها مخابئ للسلاح، وذلك وقت دخولهم مصر المحروسة، فلجأت إلى الفرنسيس، ولا أدرى هل كان أبى يعلم حقيقة ما بيني وبين بونابرته أم لا، لكنه لم يعترض قط، ولم يسألني أبدًا عن مدى تقدمي في تعليم رطانة الفرنساوية، بل أحيانًا كان يأتي إلى دار بونابرته فيشرب معه بعد أن أكون قد ذهبت إليه بوقت، ثم يصطحبني معه إلى منزلنا.

أحببت بونابرته بعد حين بسبب الطريقة التي ظل يعاملني بها، والتي لا تخل من محبة واحترام، فهو لم يمسس جسدي أبدًا، إلا إذا كنت راغبة فيما هو راغب فيه، وكان لينًا عطوفًا، يتغزّل فيَّ باللمس والتحسيس لأن لغة اللسان بيننا كانت معطلة اللهم إلا لحظات القُبل المستعرة واللثم المجنون. كنت أراه رجلاً مختلفًا عن كل الرجال الذين حولي كأبي وأخي أحمد وبقية أقربائي، فهو مهذبًا لا يطلب مني الخضوع أو الرضوخ كما أبي مع جواريه أو

أمى، إذ تمتثل إليه الواحدة منهن دون قيد أو شرط، وكان يتخلّل لقاءاتنا بعض من الهزر اللطيف، وفى إحدى المرّات فاجأنى فى المخدع الذى نلتقى فيه بالطابق العلوى من دار الألفى، وكنت وقتها أشرع فى خلع طاقية رأسى وفك ضفائرى لأبدو مثلما كان يرغب فىَّ دومًا، ولما كان غبش المساء قد سربل المكان بسرباله وشح ضوء الشمس، فارتعبت إذ وجدته قبالتى بعد أن تسحب إلى داخل المكان بهدوء، وصرخت صرخة خافتة ثم ضربته بتاسومتى التى كنت قد خلعتها لتوى من قدمى وذلك رغمًا عنى، فلم يغضب أو يثور، لكنه ضحك وقد أبهجه انزعاجى، ثم أنه أخذنى فى أحضانه وقبّل رأسى مرارًا وهو يعتذر لى قائلاً: باردون. باردون، قبل أن يُشرع فيما جاء بسببه إلى.

أمى هى التى ظلت غاضبة ومنزعجة وحدها بسبب علاقتى ببونابرته.

كانت ترى أنى سقطت فى العار، وأن أبى ليس رجلاً، وأننا سوف ندفع الثمن غاليًا وخصوصًا أنا، وظلت تخاصمنى طوال ذلك، ولا تكلمنى حتى يوم نهايتى، وكنت متكدّرة حزينة بسبب ذلك وزاد حزنى بعد أن هاجمها المرض، وأظن أنه لم يكن إلا بسبب حكايتى مع بونابرته وشعورها بالإثم والعار، قالت لى وقتها: لماذا لا تأتى هذه الشامية لتعليمك فى دارنا؟، ثم ما الداعى لتعلمك رطانة الفرنسيس؟. إنها رطانة كفار فجرة ولسوف يحاسبنا الله على ذلك، وأبوك سوف يتجرّع الكأس الذى ملأها بموافقتك على

الخروج عن معتاد الحشمة وما تسلكه الحرائر وبنات الشيوخ، وكانت تبكى كثيرًا وهى تقول ذلك، وتضيف: ليتنى ما ولدتك يومًا لو كنت أعرف أن مصيرك سوف يؤول إلى هذا. أوليتنى مت واسترحت قبل أن أشهد هذا.

لم أكن أعبأ كثيرًا لكلام أمى، إذ كنت فى قمة نشوتى بما صار بينى وبين بونابرته، لم أكن أصدق أنه اصطفانى دون كل نساء مصر، رغم جسدى النحيل وصدرى الضئيل وسمارى الذى لا يحبه الرجال، وكنت سعيدة وفرحة بما يقدمه لى من هدايا وفساتين حريرية من أقمشة مجلوبة من بلده، كنت أرتديها عادة عندما أكون عنده ولا أظهرها لأمى. الأمر الوحيد الذى كان يقلقنى آنذاك، هو أنه ظل ينعتنى بالطفلة ناقصة التجربة، هذا ما قالته لى المرأة الشامية، وكنت محقّة فى قلقى هذا، إذ سرعان ما ظهرت بحياته المرأة المدعوة بولين فوريه.

كنا وقتها فى بداية الشتاء، وقد شعرت بعد عدة لقاءات معه، ما أكد لى صحة حدسى وصدق مشاعرى، خصوصًا بعد أن ذهبت مع أبى وأخى للفرجة على مركب سوف يطيره الفرنسيس بحيلة فى الهواء فوق البركة، وبالطبع وكما جرت الأمور يوم مهرجانهم السابق جلست فى مقصورة النساء بعيدًا عن الأماكن التى يجلس بها ويقف عندها الرجال وقد لاحظت أن بونابرته يطيل النظر نحو مقصورة النساء وكنت أظن فى البداية أنه ينظر باتجاهى، لكنى تيقّنت بعد تدقيق النظر أنه يتفرّس بامرأة فرنسية أخرى، فلما

نظرت مـا ينظره وجدت امـرأة حـسناء فـائقـة الجـمـال فى مـطلع الشبـاب ذات عينين زرقاوتين لـيس لمثلهمـا من سـحـر، ورأسـهـا مكلل بسـتـارة من الأطـلس الذهبى المـفـرودة علـى ظهـرهـا والواصـلة إلى قـرب كـعـبيهـا، ولا أظـن أنـى رأيت شعـرًا كـهـذا، بل كنت أسمع عنه فى حكايات جاريتى مـال وأنا صـغيـرة عندمـا تقص لى عن الجنيـة التى تخطف الرجـال إلى أعـمـاق التـرعـة فـتـغـويهم بشـعـرهـا الحـريرى الطويل حتى يذهبوا معها.

انشغلت عن تلك الشابة بمشاهدة مركب الفرنسيس وهـى قماش على هيـئـة الأدية على عـامـود قـائم وهو مـلون أحـمـر وأبيض وأزرق على مـثل دائرة الغـريـال وفى وسطه مسـرجـة بهـا فـتيـلة مـغـمـوسـة ببعض الأدهـان، وتلك المسـرجـة مصلوبة بسلوك من حديد منهـا إلى الدائرة وهـى مـشـدودة ببكر وأحـبـال وأطراف الأحـبـال بأيدى أنـاس قـائمين بأسطحة البيوت القريبة منها.

فلمـا كـان بعـد العـصـر بنحـو سـاعـة أوقـدوا تلك الفـتيلة فـصـعـد دخـانهـا إلى ذلك القـمـاش ومـلأه فـانتفخ وصـار مـثل البـكرة وطلب الدخـان الصـعـود إلى مركزه، فلم يجد منفذًا فجذبها مـعه إلى العلو، فـجـذبوهـا بتلك الأحـبـال مـسـاعـدة لهـا حـتى ارتـفـعت عن الأرض فـقطعـوا تلك الحـبـال فـصـعـدت إلى الجـو مع الهـواء ومشت هـنيـهـة لطيفـة ثم سـقـطت طاراتهـا بالفـتيلة وسـقط ذلك القـمـاش أيضًـا ولم يصح مـا قـالوه من أنهـا على هيـئـة مـركب تسيـر فى الهـواء بحـكمـة مـصنوعـة ويـجلس فيـهـا أنفار مـن النـاس ويسافـرون فيـهـا إلى البـلاد

البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات، وبدت لى كالطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح.

وبينما انتهى كل ذلك وتأهبت للعودة بعدما طلبنى أبى نظرت المرأة الفرنسية ودب قلبى بدبيب الغيرة منها.

وعرفت بعد ذلك من الشامية حكايته مع المدعوة بولين فوريه، وذلك عندما طلبت منى أن أكفّ عن الذهاب إلى دار محمد الألفى، فبونابرته لم يعد مغرومًا بى، مشدودًا إلى شكلى وأن زمان وصلنا قد مضى.

قالت لى إنه ذهب يومها وعقب تطيير البالون الذى لم يطر إلى ملهى عُمل مخصوصًا لأجل الفرنسيس، حيث كان يدخل إليه جنودهم وضباطهم للترويح عن أنفسهم فيه مع النساء فيأكلون ويشربون ويرقصون على نغمات الآلات، وبعضهم كان يصطحب معه بعضًا من نساء المسلمين الذين سايروهم وخصوصًا الجوار السود، وقالت الست الشامية إن بونابرته التقى بولين فى هذا الملهى وراح يغازلها ثم اقتادها إلى غرفة علوية بالمكان بحجة أن قدحًا من القهوة قد انسكب على ثوبها، ولسوف يساعدها على تنظيفه وإصلاحه، لكنه غاب معها وقتًا، وقد أدرك الجميع ما جرى بينه وبينها ومن يومها، فالعلاقة بينهما لم تنقطع.

صدقت أمى فى شوفتها بالفرنسيس، وصح كلامها عنهم: لا ذمّة لهم ولا عهد.

لم أذهب بعد ذلك لزيارة صارى عسكر وانقطعت عنه ولكن كنت أتعذّب بعد ذلك طوال الوقت وشعرت وكأننى سقطت من أعلى صاريهم المرتفع الذى وسطوه ميدان الأزبكية يوم مهرجانهم.

وازددت نحولاً على نحولٍ فكنت لا آكل، بينما يأكلنى الهم والحزن يومًا بعد يوم.

ما جرى لى لم يزد أمى إلا مرضًا على مرضها، كانت تتحسّر وهى ترانى على هذى الحال، وإن كانت قد استمرت فى مجافاتى وخصامها لى.

أما أبى فبدا وكأن الأمر لا يعنيه، إذا كان مشغولاً بواقعته المشهورة مع مملوكه، وكان حزنه على ضياع المملوك منه والذى كان يعشقه كما يعلم الجميع هو ما يشغله خلال ذلك، وهل كان حزنى أو فرحى من مشاغله ذات يوم؟ لكن هذا كله لم يكن كل شىء.

وذلك أنه لما هاجت الناس على الفرنسيس وزاد سخطهم وغضبهم، وبعد أن شاع خروج وسفر بونابرته ومغادرته البلد وبعد أن جاء العسكر السلطانى واشتغل مع أهل البلد فى مناهضة الفرنسيس فصنعوا المتاريس بالأطراف كلها وبجهة الأزبكية واجتهدوا فى تحصين البلد بقدر الطاقة، وباتت الناس خلف المتاريس، فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع ووالوا الضرب بالخصوص على خطة الجمالية لكون معظم رؤساء العساكر الإسلامية بها، ولكن عساكر المسلمين

ضربوا على بيت الألفى وكان به جملة من عساكر الفرنساوية واستمرت الحرب بين الفريقين، وتدخل الأوباش وعامة الناس وكثر السلب والنهب والقتل عمّال على بطّال، ثم إنهم اتهموا أبى الشيخ البكرى بأنه يكاتب الفرنسيس ويعاملهم ويرسل لهم الأطعمة، فهجمت طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة على دارنا ونهبوها وعملوا بها ما لا يُعمل ثم سحبوا أبى وسحبونا أنا وأمى وباقى حريم أبى وجوارينا وأحضرونا إلى الجمالية مشيًا على أقدامنا دون أية ركوبة وأبى رأسه مكشوف وأمى حاسرة الرأس وحصلت لنا غاية البهدلة والإهانة التى ما كنت أتصوّر أن تحدث لنا مع سماع الشتائم من العامة والكلام البذىء المؤلم، فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم.

فلما رأى عثمان كتخدا ذلك هاله ما جرى لأبى ولنا، واغتم غمًّا شديدًا، وراح يطيب خاطر أبى ويوعده خيرًا، ثم أخذنا أحمد بن محمود التاجر إلى داره ووضعنا مع حريمه وأكرمنا وكسانا وبقينا عنده حتى انتهت الهوجة وسكنت ثورة الناس، وكانت جرسة وفضيحة مضت علينا ككابوس فى منام.

ولكن هذا كله لم يكن كل شىء أيضًا...

راح بيتنا الذى بالأزبكية فى العركة الكبيرة التى دارت بين الفرنسيس وأولاد البلد ومن آزرهم من عساكر المماليك والعثمانلية، فقد ضُرب بيتنا ضمن ما ضُرب من عماير مصر ودورها التى بالخطط والشوارع والحارات، لكن الفرنسيس عوّضوا

أبى عن هذا البيت وأعطوه بيت البارودى وألبسوه فروة سمور وهدأت الأمور.

لكن الزمان لم يعد مثلما كان، وشعورى دائمًا الآن هى أن الأيام الحلوة راحت وولّت مع بيت الأزبكية الذى لم أحب بيت البارودى مثلما أحببته.

دار الأزبكية كانت واسعة جميلة تقع بجوار دار الست خاتون على البركة بدرب عبد الحق، وكان هذا البيت فى الأصل دارًا لعائلتنا البكرية، فلما تنازع أبى مع ابن عمه السيد محمد أفندى فى المبتدأ بعد وفاة عمه السيد أحمد الصديقى المتولى للسجادة البكرية خاصتنا، قسموا البيت نصفين وعمر أبى منابه عمارة متقنة وزخرفة وأنشأ فيه بستانًا زرع فيه أصناف الأشجار وفرشه برياش مجلوبة من أقطار شتّى، وهى الدار التى طالما أو لم بها أبى ولائمه، ومد أسمطة عديدة، تحدثت عنها المحروسة كلها، خصوصًا ذلك السماط الذى كان يعمل فى المولد الشريف. ولقد كان لدينا تحت هذه الدار بالبركة قنج وغراب نتنزه به فى الماء حينًا مثلما كان يفعل كل الناس من أصحاب الدور على هذى البركة.

وكنت أحب الذهاب دومًا إلى دار الست خاتون جارتنا مع أمى التى كانت تصادقها، فألعب عند الطاحونة والساقية الموجودة بها، والست خاتون كان لها تداخل مع الفرنساوية مثل أبى، كما تقول أمى، لأن مراد بيك تزوج بها بعد وفاة على بيك بلوط قبان الكبير

وهى كانت سريته وهو من بنى لها هذى الدار. فلما اصطلح مراد بك مع الفرنساوية، رتبوا لها من ديوانهم فى كل شهر مائة ألف نصف فضة وكانت شفاعتها مقبولة عندهم.

والست خاتون هى التى أعرفتنى مرة أن واحد من أمراء مماليك زمان، كان قد شيّد حظيرة لجماله فى الموضع الذى به البركة وبيوتنا وكان فى الأصل أرضًا ملحية بها رمل وتلال، ثم ارتأى أن يبنى منزلاً له إلى جوار اسطبل الجمال هذا، ثم أحضر عددًا من الثيران والمحاريث ونزح الكثبان عن المكان، وحفر بركة وأحاطها بمنتزه، فقلده أكابر الناس وبنوا مثله بيوت فخمة وعمروا عمائر وقصور وأصبح يسمى الأزبكية. وكنت أحب بيتنا القديم عندما يعلو بحر النيل ويفتحوا الخليج ويفيض ماؤه إلى البركة فتصبح كالحوض الواسع الممتد وحولها البيوت مرصوصة ببساتينها وحدائقها البديعة ومنها بيتنا، فيصبح المكان جنة من جنّات الله على الأرض، وحتى بعد أن ينحسر ماء الفيضان، فإن أرض البركة تنبت ما لم يُرى وما لم يسمع عنه من أطايب المزروعات، ولقد حفظت أبياتًا من الشعر فى وصف البركة لأن أخى أحمد كان يرددها كثيرًا عندما يزور جدتى، وأجلس معهما حينئذ، ويقول أحمد إنها لواحد من المشايخ النابغين تداخل مع الفرنسيس وأحب علومهم وآلاتهم وما يبتدعونه من غرائب، والشيخ اسمه العطار لكنه فر بعد حين إلى بلاد الروم لسبب لا أعرفه، وكثيرًا ما أردد هذه الأبيات بينى وبين نفسى، كلما تذكرت بيتنا القديم بالأزبكية، وأخذنى الحنين إلى أيامه المليئة بالفرح والسرور ومباهج الأوقات فأقول بأسى:

بالأزبكية طابت لى مسرات

ولذ لى من بديع العين أوقات

حيث المياه بها والفلك سابحة

كأنها الزهر تحويها السماوات

مدت عليها الروابى الخضر سندسها

وغردت فى نواحيها حمامات

لم يكن بيت البارودى جميلاً كبيت الأزبكية، فهو قليل النوافذ والمشربيات، والشمس والنور لا يزورانه إلا فى الصباح الباكر، وكانت معظم حجراته وقاعاته لا تخل من عتمة حتى فى عز النهار، بالمجمل كان بيت زهومة وريح ثقيلة، ومال قالت إنه مسكون، وأنها رأت ذات مرة وبينما قامت إلى الكنيف ليلاً لتفك نفسها من حسرة البول، امرأة محلولة الشعر، واقفة فى الدهليز المؤدى إلى الكنيف، تلطم خديها وتبكى، كما قالت إن واحد من الفراشين أخبرها أنه يظل متسمع لعويل قبيل الفجر وهو نائم بمخزن الغلال القريب من الساقية، وذلك كل ليلة.

عمومًا شعرت بغربة ووحشة لا حد لهما، فلا أمى تحادثنى، ولا أبى عدنا نراه كما فى السابق. وكانت الناس قد هاجت من جديد على الفرنساوية فى كل ناحية، وليس بالمحروسة وحدها، فعزت الأقوات وانعدم الوارد إلى المدينة من الحواصل والزرع، وغلا سعر كل شىء، وبتنا نعيش فى ضيق بعد أن كنّا فى عز، مثلنا فى ذلك

مثل كثيرين من مساتير الناس، وكان الفرنسيس قد أخذوا ينكلون بكل مَن عاداهم وحاربهم، وألّب العوام عليهم، فعملوا الشناعات، من قتل ونهب وهدم الدور والضرب بالبندق على الفاضى والمليان، وفرضوا الفرد بالعمى ودون تمييز على الكبير والصغير والميسور والمعدوم، فراح العاطل مع الباطل، والصالح فى أرجل الطالح، واستمر هذا الأمر حينًا، فضجت الناس ورفعت أيديها بالدعاء وصار الجميع يقولون: يا نجى الألطاف نجّنا مما نخاف.

لكن الأيام دارت وكشف الله الغمة فانكسر الفرنسيس على يد العثمانلية والإنجليز، وعاد البشوات والأغوات مرة أخرى كما سرى الخبر بين جميع الناس.

جاء موعد المولد النبوى الشريف ونحن فى غاية الحزن والكدر، إذ تنادوا فى الشوارع بالكنس والرش وتزيين الحوانيت بالشقق الحرير والزردخان والتفاصيل الهندية المبهجة وركب الصدر الأعظم عصر ذلك اليوم وشق المدينة وشاهد الشوارع، وفى المساء أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد، وحصل الجميع بتكية الشكللين على العادة وتردد الناس للفرجة ليلاً وعملوا مغانى ومزامير وقراءة قرآن، وضجت العيال فى الأسواق، وكان من المعتاد ألا يحدث ذلك إلا فى الأزبكية فقط، حيث كان بيت أبى، لأن عمل المولد من وظائفه فقط، فصار فى هذى الليلة مغمومًا، ونام حزينًا كسيفًا، وقد تناساه الناس وأهملوه، وخمد ذكره وعد ذلك من غاية البهدلة التى جرت له ومن علامات جور الزمان عليه، وانصراف الأيام عنه.

وتناهى بين الناس أنهم يفتشون عن النساء اللواتى تزوجن برجال من الفرنساوية وعساكرهم وأتباعهم وقت تسلطنهم على البلد، وأنهم يشدّدون السعى لعقابهن، بحجة تبرجّهن مع هؤلاء الكفار الذين ليسوا من أهل الملّة، والذين تزوجوا من النساء بعد نطقهم الشهادتين وإسلامهم على يد مشايخ. وكانت الحجة فى ذلك، أن هاتيك النسوة خرجن عن الحشمة والحياء ورحن يقلدن نساء الفرنسيس، فمشين فى الشوارع مثلهن حاسرات الوجوه ولا تستر شعورهن غير المناديل الخفيفة، وكان أكثر الفتك بالنساء الأسافل والفقيرات من نساء بولاق خصوصًا وقت خروجها على الفرنسيس لأن الفرنساوية لما أخضعتها وأخمدت عصيان الأهالى بالقوة والجبر، أخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات، وصرن مأسورات عندهن، فزيّوهن بزى نساءهم من فستانات وخلافه وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال. أما بنات الأعيان فقيل إنهن تزوجن بالفرنسيس رغبة فى سلطانهم ونوالهم، وقد رغب فى الانتقام من النساء هؤلاء الناس بعدما عانوا من إذلال الفرنساوية وفرض المكوس عليهم وتجويعهم وإخراج ما يتقوتون به منهم بالقوة والقهر وإظهار ما لا يستحسن من الحشمة فى السلوك.

وعندما بلغنى ذلك، أدركت أن الدائرة سوف تدور علىَّ إن آجلاً أو عاجلاً، فهؤلاء لن ينسوا ما كان بينى وبين بونابرته من وصل وغرام، ولن يغفروا لأبى ما كان بينه وبين الفرنسيس من جور المودة فبت فى هم عظيم، ولم أعد أقو على طعام أو شراب،

وانزويت بجانب من الدار الجديد، لا أرغب بمحادثة أحد من الناس مهما كان، حتى جاريتى ومربّيتى مال، وكففت عن الضحك والممازحة مع الجوارى والخدم والعبيد مثلما اعتدت أن أفعل دومًا. لاحظت مال عزوفى عن كل فرح أو مرح كنت عليه قبل ذلك، وكذا انزوائى وانطوائى على حالى وما أنا عليه من هم وغم، فكانت تسعى لمواساتى بكل الطرق وتبتدع حيلاً لتجعلنى أبتعد عما أنا فيه، فجلبت لى كلبًا صغيرًا مصنوعًا من القماش والقش به زنبرك يجعله يتحرّك ويهز ذيله كلما أدارت هذا الزنبرك، لكن لا شىء كان قادرًا على إضحاكى أو إدهاشى أو إزاحة شعورى بالخيبة والمصيبة، حتى قطتى الرومية الأثيرة، عنبر بدت وكأنها انتبهت لما أنا فيه، فآثرت الوقوف أو الجلوس على بعد منى، دون أن تقفز فى حجرى كما اعتادت أن تفعل.

سرى الخبر بالبلد بأن زوجة صارى عسكر الأخير المتسلطن على البلاد بعد حادثة صارى عسكر الفرنسيس المقتول بالأزبكية، والمسماة الست زبيدة، سوف تصل المحروسة بصحبة أخيها السيد على الرشيدى قادمين من بلدهم المسماة رشيد والواقعة عند فم البحر المالح، لذلك ارتأت الست خاتون أن نذهب عند وصولها لزيارتها والسلام عليها ببيت الألفى بالأزبكية قبل طلوعها القلعة، لأنها ستمكث فيه لمدة ثلاثة أيام فقط، وقد حكت الست خاتون لأمى عندما جاءت تزورها بسبب ذلك، أن الست زبيدة لما تزوجها صارى عسكر الجديد هذا، بعد أن أسلم وسمى نفسه عبد الله چاك مينو وعقد عليها بحضرة المشايخ والقضاة،

وصارت تحته، أصبح يمد يده إليها كلما هَمّ بالدخول معها إلى غرفة الطعام، ويتحرّى لها أوثق المجالس، ويقدم لها خير الأطعمة وأشهاها، وكان إذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها، بادر بأخذه وإعادته إلى مكانه، وذلك حتى قبل أن يصير صارى عسكر وسلطان الفرنسيس بالبلاد، فلما علمت بعض صاحباتها ذلك منها، وكن مجتمعات معها بحمام من حمامات ناحيتهم تعجبن جدًا من ذلك وشعرن بالغيرة منها، بسبب حالهن وما هم عليه من ظلم واقع عليهن من أزواجهن فحررن عرضًا قدمنه للسلطان الأكبر بونابرته ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل ما يعمل مينو مع الست زبيدة.

ازددت غمًا عندما سمعت ذلك من الست خاتون، وقارنت حالى بحال زبيدة، فبونابرته باعنى عند أول ناصية صادفته فى الطريق وذهب إلى تلك الفرنسية الشقراء. كدت أبكى بعد أن استمعت إلى هذا الكلام، وفكّرت فى حال أبى وحال بيتنا كله وما صار فيه بسبب دخول الفرنسيس، لقد انقلبت حياتنا رأسًا على عقب، كنا فى حال وأصبحنا فى حال آخر تمامًا، وأصبحنا نرى الدنيا وكأنها غير الدنيا التى كنا نراها، فأنا كنت معجبة بأحوال الفرنسيس وملابسهم، ولم أعد أحب ملابسى وصرت أجدها قديمة، مربكة مُكبلة، لكنى أيضًا لا أستطيع ارتداء الفستانات كزوجات الفرنسيس ولا يمكن أن أظهر ذراعى وظهرى وما هو من أعلى رأسى حتى منبت ثديى كما تفعلن. لخبطوا حالنا هؤلاء الفرنسيس. وأفسدوا حياتنا المستقرة المطمئنة التى كنا نحياها، بت أرى

ملابس أبى وملابس الشيوخ كلهم مضحكة، ولكن ملابس الفرنسيس تدفعنى للسخرية أيضًا، وأشعر معها أنهم يبخلون على أنفسهم ببعض من القماش فيلبسون هذه السراويل الضيّقة المكبّلة لحرية الأعضاء.

بت أكره أبى، وكل الرجال الآخرين الذين يمتلكون كل هاتيك النسوة والحريم بعد أن رأيت الفرنسيس لا يتزوجون إلا بواحدة ولا يعاشرون إلا واحدة. على الأقل لا يعلنون إلا عن ارتباطهم بواحدة حتى لو كانت لهم خليلة أو أكثر فى السر.

أكره حب أبى للغلمان، وتفاخر المشايخ بهواههم لهذا الغلام أو ذاك. فضائح أبى فى هذا الجانب يعرفها القاصى والدانى، ومال همست لى وحدى أكثر من مرة: والله أنك حلوة ولست معصعصة، كما يقولون ودمّك شربات وسمارك خفة، لكن فضائح أبيك وأفعاله مانعة عنك العرسان.

يعجبنى ما يقوله الفرنسيس لبعضهم عندما يلتقون، وأحب رطانتهم وهم ينطقون بها ما معناه صباح الخير، مساء الخير، كما أفهمتنى الست الشامية. تقول بلغتنا، السلام عليكم. حلوة. ولكن معناها وكأن الناس بينهم حرب، فإذا التقوا أعلنوا عند لقاءهم السلام. غريبة.

أحببت طريقة بونابرت فى وصلى. تقديمه الورود لى بين الحين والحين، لم أشعر معه أنى جارية أو عبده. لكنى لم أحب أيضًا عنطزته على أبى والمشايخ وأولاد المسلمين، وقرفه من طريقة

معايشنا وحياتنا. خيانته وغدره لى كدّر عيشتى وحياتى. كرهت أبى لأنه استمر فى تزلفه له، حتى آخر وقت وقبل أن يغادر البلاد فى السر، وكأنه ولى نعمته. أيامى الأخيرة صارت من سيئ لأسوأ. أشعر أن الخدم والفراشين والجوارى يتهامسون فيما بينهم بخصوص ما كان بينى وبين بونابرته، وأعرف أن هناك من همس فى أذن أمى بأن ذهابى لبيت الألفى لم يكن بسبب دروس الست الشامية، ولكن بسبب بونابرته، وهذا هو سبب غضبها علىّ ومخاصمتها لى منذ مدة، لأن العار الذى لحقنا بسبب الفرنسيس لن يمحوه الزمان أبدًا كما تقول.

أعلمتنى مال أنهم وجدوا السيدة المدعوة هوى، وأعادوها لزوجها إسماعيل كاشف المعروف بالشامى. مال قالت إن زوجها أمنها وطمأنها ولكن لا بد وأنه قاتلها فى يوم من الأيام.

وحكاية هوى شغلت الناس حينًا وقت الفرنسيس، لأنها تزوجت النصرانى نقولا وأقامت معه مدة، فلما ثارت الفتن وقت الفرنسيس جمعت ثيابها واحتالت حتى نزلت من القلعة وهى على حمار ومتاعها محمول على حمار جنبه، فنزلت عند بعض العطف وأعطت المكارية الأجرة وصرفتهم واختفت، لكن أصحاب الشرطة تعقبوها فى كل مكان، وشدّدوا على المكارية فى طلبها، وكان عبد العال يتنكر ويلبس لبس الحريم ويدخل البيوت بحجة التفتيش عليها فانزعج الناس، خصوصًا وأنه كان يسطو على بعض الموجود فى البيوت ومصاغ النساء وذهبهن ويأخذه بالقوة، ويتحصّل على

ثمائن أخرى بالدور دون مراعاة لأية حرمة. أعرف أنه لن يقترب منى رجل بعدما سرى خبر ما كان بينى وبين بونابرته، وأعرف أن هذا لم يحدث قبل ذلك، بسبب شكلى وكسمى، لكنى بعد علاقتى ببونابرت فمن ذا الذى يفكر بى أو يحاول الاقتراب منى؟. وقد صرت فى أعين الجميع فاجرة. فاسدة. المشكلة لا أراها فى هذا الأمر، يأتى إلى دارنا رجل ليخطبنى أو لا يأتى، ليست هذه العقدة، لكن المعضلة أصبحت بداخلى كامنة بأعماقى، فأنا لا أجد أننى سأقبل رجلاً إلا لو كان مختلفًا عمن أراهم حولى. رجل يعاملنى مثلما كان يعاملنى بونابرته، وربما على نحو أفضل من بونابرته. ولكن كم بونابرته يوجد على هذى الأرض حولى؟.

لا يهمنى أنه أمير الفرنسيس ولا سلطانهم، ولا أعنى بكل ما له من عسكر ونفوذ، بل كل ما أحببته فى هذا الرجل، ما عاملنى به من حب وتقدير، ورقة فى المعاشرة وليونة فى المعاملة، ومعه لم أشعر أنى جارية أو مملوكة لكائن من كان. أشعر بأن الرجال حولى باتوا كالوحوش. خشونتهم ومعاملتهم الناشفة باتت لا تعجبنى.. لماذا كل هذا، ألا يكفى هزيمتهم وما جرى لهم من بهدلة؟. لماذا يصرّون على معاملتنا نحن الحريم كما كانوا يفعلون من قبل.

أكره العبيد وأكره الخدم والفراشين والجوارى والسرارى، وأكره الآن كل أولئك المهانين الخاضعين المذلين دومًا والذين يقولون يا سيدى ويا ستى، وحضرتكم وجنابكم. قلب حالى الفرنسيس. الله يخرب بيت سنينهم. لم تعد الدنيا فى عينى هى

الدنيا، أصبحت قلقة خائفة، خصوصًا بعدما أعلمتنى مال بقصة المرأة هوى وما سيفعله زوجها بها، لا أعرف هل الأيام التى عشناها بعد مقدم الفرنسيس، أهى حلم أم كابوس، حقيقة أم وهم؟.

أتذكر حكاية أهل الكهف التى يقولها المشايخ وهم يرتلون القرآن، بينما أفكر فى الفرنسيس. أقول لنفسى أهل الكهف خرجوا يفتشون عن الطعام لما أفاقوا، أما نحن فقد دخل الفرنسيس علينا الكهف وأيقظونا، فقمنا مرعوبين مصدومين غير مصدقين، أن الدنيا اختلفت وأصبحت غير الدنيا.

الفرنسيس لخبطوا حالنا، لكن الناس بالبلد عرفت غرضهم ومقصودهم، ولم تبلع طعمهم، وفهمت رغم لطف طرائقهم وحلاوة لسانهم، أن مرادهم هو خيرات البلد وعمل مصالحهم. لقد ظلت المصائب تترى علينا وتنزل على رءوسنا منذ ارتحال الفرنسيس وإخلاءهم قصر العينى والروضة والجيزة وانحدارهم إلى بحرى الوراريق، ودخول الوزير يوسف باشا العثمانلى، والذى شهدت موكب دخوله بالصدفة جاريتى مال، بينما كانت ذاهبة لجلب قماش وخيوط لأمى من سوق الخياطين، فقد شق موكبه من عند باب النصر إلى وسط المدينة، وأمامه العساكر المختلفة من الأرنؤد وكبار رجالات الدولة والمشايخ الذين لم يكن بينهم أبى، وأعلمتنى مال أن الوزير يوسف، كان أمامه الملازمون بالبراقع والجاويشيه والسعاة والجوخدارية وكان عليه كرك صوف سنجابى مطرز

مخبش وعلى رأسه شلنج بفصوص الماس وخلفه اثنان عن يمينه وشماله ينثرون دراهمهم الفضة البيضاء ضربخانة اسلامبول على المتفرجين من النساء اللواتى يطرقعن بالزغاريد والرجال المهللين المكبرين المتصايحين بصيحات النصر والداعين لسلطان العثمانلية بالمجد والفخار.

«مسكينة يا مصر. كل يوم فى حال. لكن حال أنيل من حال».

قالت مال معقّبة على ما رأته وهى تمصمص شفتيها.

حالنا نحن البكرية صار من مصيبة لمصيبة منذ ذاك الوقت. فقد تم عزل أبى عن نقابة الأشراف وولّوها للسيد عمر مكرم، كما كان الحال قبل الفرنساوية، وقد سعى الكارهون لأبى عند الوالى محمد باشا خسروا، فقالوا بأنه مرتكب للموبقات ويعاقر الشراب وأنه لا يصلح لمشيخة السجادة البكرية وعرفوه أن هناك شخصًا من سلسال بيتنا البكرى هو الشيخ محمد سعد وكان من أتباع أبى، وهو فقير لا يملك دابّة يركبها، فواساه الباشا وأعطاه وألبسوه تاجًا كبيرًا وثيابًا وهو رجل طاعن فى السن وألبسه الباشا فروة سمور وقدم له حصانًا معددًا وقيد له ألف قرش وسكن دارًا ناحية باب الخرق وتريش حاله بعد أن صار على السجادة البكرية عوضًا عن أبى.

وكانوا قد طلبوا أبى إلى بيت القاضى بالجمالية وذلك لأن اليسرجى الذى جلب مملوكه سبب المُشكل بينه وبين عبد العال أيام الفرنساوية، ادعى عليه أنه قهره فى أخذ المملوك بسلطة

الفرنسيس، وأن أبى أخذه منه بدون القيمة وبسعر بخس، وأن اليسرجى كان قد أحضره فى الأصل على ذمة مراد بك قبل دخول الفرنسيس، وطال النزاع أمام القاضى، والشد والجذب بين أبى واليسرجى وآل الأمر بينهما بينهما إلى انتزاع المملوك منه.

لم تقف المصيبة عند هذا الحد، ولا عند حد الجرسة والفضيحة التى جرت لنا قبل ذلك بسبب منازعة أبى مع عبد العال على هذا المملوك وعشق الشيخ له وتوله به، لكن المصيبة أن أبى كان قد عقد لى على هذا المملوك بعد انقطاعى عن بونابرته، رغمًا عنى وذلك بعد أن أعتقه ورتب له راتبًا يتعيّش به، لكن القاضى فسخ عقد النكاح أيضًا، وأخذ المملوك عثمان بك الطنبرجى المرادى، ودفع لأبى دراهمه التى كان قد دفعها ثمنًا للمملوك. كما أعطى الطنبرجى باقى الثمن لليسرجى جلابه، فزادت مصائبنا مصيبة وفضائحنا فضيحة، ولكن هذا كله لم يكن أخرة المصائب كذلك....

فقد زاد تعصب بعض المشايخ ضد أبى وتصدوا لمفاقمته وأذيته، ومنهم السيد عمر مكرم والذى فرّ من بر مصر مع أمراء المصرلية أيام دخول الفرنسيس والذى تولى نقابة الأشراف قبل أن يسلمها الفرنسيس لأبى، وكان السيد عمر مع السيد أحمد المحروقى هما اللذان نفخا فى نار الفتنة الثانية ضد الفرنسيس والتى حدثت وقت سارى عسكرهم المقتول والمدعو كليبر، فكان السيد عمر يتهم أبى بمسايرة الفرنساوية ومهادنتهم والمشى تحت

أبطهم، وعمل ما يعملونه من مشى بطال وفرنجة غير مقبولة، أما أبى فطالما قال إن السيد عمر كان حانق عليه دومًا، سواء قبل دخول الفرنسيس أو بعد خروجهم، لأن السيد عمر لم يكن من ذوى الحسب والنسب وأبناء الأصول مثلما أبى ولم يكن غنيًا ميسورًا كما هو الحال فى العائلة البكرية، وأن نسبة الشريف غير موثق ومعروف كنسبنا المثبت حتى جدنا الأول سيدى أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، ولا توجد لديه حجة مكتوبة بشهادة شهود. أما الشيخ السادات، فكانت بينه وبين أبى دومًا، معارضة ومنافرة رغم حسبه ونسبه، وكان يظن أن لأبى طرائقه الناعمة فى جذب الفرنسيس وقائدهم إليه.

لكن منافرة الشيخ محمد وفا السادات والسيد عمر مكرم وضحت وزادت بعد رجوع العثمانلية، وكما قالوا: «لقد خلا لك الجو فبيضى واصفرى»، وهكذا سعى هذان الشيخان لأذية أبى والبكرية، وحرق قلب شيخنا هذا بكل طريقة وشكل ومكايدته فسعيًا لإبطال عقد نكاح أخى أحمد على الشريفة قريبتنا بنت المرحوم محمد أفندى البكرى ببيت القاضى، وسلطوا عليه من له دين أو دعوى أو مطالبة، حتى بيعوه حصصه وكثير من أملاكه.

لم يعد بيتنا بيت العز والكرم، اختفت منه الولائم ولم تعد هناك أسمطة، اختفى من يأتى إلى أبى من أصحاب المطالب والحاجات وخمد ذكره بين الناس. صويحبات أمى اللواتى كن يزورنها فى المناسبات اختفين تمامًا وخصوصًا من زوجات المشايخ والأعيان.

أشعر بوحشة، وبرودة، وخوف وأيام سوداء مقبلة.

العلامة

صرت عود قصب بحق وحقيق.

فبمرور الوقت وبسبب امتناعى عن الطعام والشراب ازددت نحولاً على نحول، وبرز عظمى فى كل مكان بجسدى، وبات لونى شاحبًا باهتًا وكأنى على وشك الموت..

صدرى يدق على حين غرة بسرعة وقوة. وتضييق أنفاسى وأتعرّق دون سبب. جافانى النوم ليلاً، فأظل ساهرة عاجزة عن إغلاق جفنى، أبحلق فى ظلمات حالكة، أرى أحيانًا وجوهًا غريبة مخيفة تنظرنى تضحك وتحدج بى، أتمنى الصراخ ولا أستطيع، فأغلق عينى فإذا غلبنى النعاس، سرعان ما أفيق لأنى أرى كوابيس مريعة تجعلنى أهب مفزوعة ومنطورة من مرقدى.

بالأمس هاجمنى واحد من تلك الكوابيس، فقد رأيت فيما يرى النائم أن أمى زينتينى بعد عودتى من الحمام، زينة فاقت كل زينة عملتها لى ذات يوم، وأننى أرتدى بدلة العرس البيضاء وحولى أرباب المغانى والعوالم والمطربات وأبى وأخى أحمد وجميع

الجوارى والعبيد والفراشين وزوجات المشايخ والست خاتون، وفجأة تحوّلت أرباب المغانى تلكم إلى ندابات رحن يندبن بكلمات مهولة تقشعر لها الأبدان وتترك فى النفس همًا وكمدًا، وفجأة. ظهر بونابرته بين كل ذلك، ومعه المشاعلية، ثم أنهم رفعونى بالقوة، وشرعوا فى وضعى فوق الخازوق، وسط تعالى زغاريد مخيفة، وتوالى الندابات فى الندب والصراخ ونظم كلمات الحزن والاغتمام. قمت مفزوعة أرتجف متعرقة وحلقى جاف ولا أقو على الصراخ. رحت أنتحب وأنتحب دون توقف حتى شقشق الفجر.

تمنيت على الله أن يحل طاعون هذا العام سريعًا، لأصاب به وأستريح من كل ذلك العذاب الذى أعيش فيه ويأكل روحى، لكن الطاعون لم يأت كعادته ورغم هزالى وضعفى، فلم أصب بأى مرض كان.

ولكنى ظللت أستشعر بأننى أقترب كثيرًا من نهايتى. ففى أحد الأيام وبينما كنت أهم بخلع سروالى وتغيير ملابسى، وأنا بحمام الدار، اكتشفت شيئًا ورديًا أشبه باللدغة فى عقب قدمى، فظننت أن عنكبوت أبو شبت أو أم أربعة وأربعين أو عقربًا قد لدغتنى دون أن أحس أثناء نومى، وما أكثر ذلك بالدار بسبب الحدائق ولعنت الرفاعية الدجالين اللذين زعما أن البيت صار محصنًا من الثعابين والحشرات بعدما مارسا سحرهما وتمتما بتعويذاتهما، فجريت لأخبر أمى وأريها ما حدث بعقب قدمى.

لكن يبدو أن أمى لاحظت هذه العلامة قبلى، ودون أن أدرى، إذ كانت قبل ذلك بأيام قد عادت للكلام معى، وامتنعت عن خصامى،

وبدت حنونة لطيفة على نحو لم أرها عليه من قبل، وكنت متعجبة من ذلك وكان هذا يخفف من وطأة آلامى ويزيل قليلاً من انقباض صدرى، فلما أظهرت لها العلامة لم تستطع كتمان ما تعرفه فقالت: ـ

ـ استغفرى الله يا ابنتى، تطهرى وصلى، فالله شاء أن يسترد وديعته التى أعطى، ولا رادّ لقضاء الله.

أُخذت قليلاً وسألتها:

ـ لماذا تقولين هذا الكلام وأنا أحدثك عن اللدغة؟ فوجئت بأنها انفجرت بالبكاء، وبصعوبة قالت:

ـ هذه هى العلامة. علامة الموت فى سلسال البكرية. ثم أنها توقفت قليلاً عن الكلام وبدت عاجزة وكأنها تصارع أمرًا حتى تخرج الكلمات من فمها، ثم قالت:ـ

ـ هى وراثة عن جدكم أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، عندما لدغ أثناء تخفيه فى الغار من بطش الكفار.

ثم أنها لطمت خدودها بشدة وهى تصرخ وتولول:

ـ يا رب .. يا رب خـفف علينا يا رب. ألطف بنا وهوّن علينا الأمر، ويسّر عليها آخرتها.

بقيت فترة واجمة. لا أقو على أية حركة وقد تملّكنى رعب غريب. تمنيت أنها لم تقل لى ما قالته، وتركتنى لمفاجأة الموت.

جاءت مال وبعض الجوارى والخدم على صراخ أمى، وظنوا أن هناك مُشكل بيننا أو شد وجذب فى الكلام، انتهى بصراخها، فلما

وجدونى ساكتة واجمة، ارتسمت الحيرة على وجوههم، فسألتنى مال مستفسرة وهى تحاول إسكات أمى بينما جرت جارية لتهدئها بشربة ماء، فلما لم أرد على مال أو أوضّح لهم ما حدث، قالت أمى وهى تدب على فخذيها وكانت قد جلست على سجادة من السجاجيد المفروشة بالأرض.

ـ هذا ما نلناه من الفرنساوية وزمن الفرنساوية، خراب وتلف، وضياع كل شىء حتى كرامتنا وسمعتنا، جازى الله من كان السبب فى كل هذا. كم قلت إن الخُلطة الزايدة بهم والتداخل معهم لن يجلب لنا غير التعاسة والشقاء. وها نحن الآن كما هو مستبين، وقد صدق حسّى وشعورى، وأصبحنا لا طايلين سماء ولا طايلين أرض.

لم أعد أحتمل المزيد، كنت أنظر إليها فقط بذهول، عاجزة عن الكلام، لا أدرى ما الذى يتوجب علىَّ فعله أو قوله، لكنى ما لبثت أن جريت لأختفى من أمامها ذاهبة إلى غرفتى وأنا على وشك الانهيار.

تمددت على سريرى، وصور كثيرة تتلاحق أمام عينى وهى تخرج من خزانة الذكريات.

إذن ها هو الكابوس الحقيقى الذى أعيشه الآن، والذى لا تدانيه كوابيس المنام المخيفة التى تداهمنى كل ليلة بكل صور الرعب والقسوة والتخويف.

رحت أسائل نفسى، ما الذى فعلته بدنياى، وخلال سنوات عمرى القليلة، حتى انتهى إلى ما انتهيت إليه الآن؟. هل سأموت قريبًا وأجلى قد حان كما تقول أمى، لأن العلامة إياها ظهرت بقدمى؟.

مالى أنا ومال الفرنسيس؟ أشعر أحيانًا، أنهم إنما جاءوا إلى البلاد لأجل أن يشوشوا علىّ ويفسدوا حياتى، أنا زينب البكرية بنت خليل وسليلة الحنفية، التى ما كان لها فى ثور الفرنسيس ولا طحينهم، ولا خطروا لها يومًا على البال لا فى حلم أو علم.

أعرف أنهم شوشوا على مخاليق أخرى كثيرة ولخبطوا أحوالهم، وأنهم قلبوا حال الدنيا وغيروا سلو البلاد بين عشية وضحاها، لكنى أنا، زينب البكرية، ما جرى لى لم يجر لعدو ولا حبيب، فأنا أشعر أن روحى لم تعد روحى، ونفسى لم تعد نفسى. هل لأنى غير شكل ومختلفة، أم لأن الفرنسيس مردة وشياطين على هيئة آدميين كما تقول مال؟.

لقد عبث الفرنسيس بالجميع وأفسدوا حياة وطرائق معاشهم، ولكن هل أنا التى يجب معاقبتها على ذلك والقصاص منها؟.

بت أكره شكلى، شعرى وضفائرى، مصاغى ولباسى، أقارنها أقارن كل ذلك بما لدى الفرنسيس وأقارن بين طرائقنا وطرائقهم، أحب بعض ما لديهم، ولكنى لا أقو على فعله، أشعر أننى سأكون غير شكل.

ظللت أحادث نفسى وأهجس لها بأسئلة وأسئلة وأنا أتذكر بيتنا فى الأزبكية ومولد النبى والست خاتون وأوقاتى مع بونابرته، وفرحتى بالطبلخانة الكبيرة التى ضربتها عساكره تحت بيتنا يوم المولد، وأوقات الليل بالبركة وقت صعود النيل، وعزف المزامير والنايات وكأن جن تلبّسنى، وجدتنى أقفز من مكانى على السرير

وأحل ضفائرى بسرعة وأبدأ فى الرقص، فرحت أرقص كالمجنونة، وقد انفجرت بداخلى طاقة هائلة أو كأن عفاريت الأرض كلها قد ركبتنى، وظللت أرقص وأدور وأتمايل وأتطوح، كالفقراء والمجذوبين وأهل الخطوة والذين مسهم مسّ من الجذب والجنون وطار برج من دماغهم. بقيت على هذا الحال وقتًا لا أدريه حتى سقطت وانهرت على الأرض دون أن أدرى.

يقول إنه برىء منى

لم يكف أبى عن معاقرة الخمر بعد رجوع العثمانلية، وإن كان الخمر لم يعد متوفرًا سهل التحصل عليه مثلما كان الحال زمن الفرنسيس، لكن أبى لم يعدم من يجلبه له من الأورام والقبط الموجودين بالمحروسة، والذين يعملها بعضهم، بل ويبيعونها جهارًا نهارًا فى كل مكان.

ظل مواظبًا على عادته فى الجلوس بمجلسه المطل على بستان الدار الذى اجتهد لأن يكون جميلاً كذلك الذى فقدناه بدار الأزبكية بعد أن غرس فيه أشجارًا وحسنها وأتقنها، وعمل بها مصاطب ولواوين جلوس لطيفة.

أصبح لا يخرج إلا للضرورة، ولا يزوره أحد، وصارت صلته بالناس عزيزة ونادرة.

حتى مروره على الحريم صار قليل، ولم يعد يمر على جدتى فى قاعتها، بل أصبح يكتفى بإرسال الدخان الذى يجلبه لها مع الخدم، وكانت جدتى تدخن الشُبك أيضًا، وصاحبة مزاج ورغم تقدمها فى

العمر، ظلت تحب المغنى والأدوار، وكان لها فى اللعب بالطار. بعد يومين من ظهور العلامة، وبينما كنت جالسة وحيدة بحجرتى، أحدق فى لا شىء، واجتر حزنى وهمى، دخلت علىَّ مال مسرعة وقالت:ـ

ـ رجال من طرف الوزير العثمانلى الآمر الجديد بالبلد، جاءوا إلى أبيك ويتكلمون معه بالمضيفة.

كان الوقت بعد صلاة المغرب بقليل والظلام على وشك الحلول، والرؤية شحيحة، فلم أتبيّن أمى التى جاءت فى أعقابها، وكنت أحاول تفهم ما قالته مال، بسبب شرودى وتشوش ذهنى، فوجئت بأمى تقول بصوت أجش ممرور.

ـ فزّى وقومى أجهزى بسرعة.. جماعة الوزير عند أبيك، وطلبوا حضورك لبيت الوزير فى التو.

ثم أنها جلست على كنبة فى مواجهة سريرى دون النطق بكلمة أخرى.

جاءت مال بالقنديل بسرعة، وكنت أحاول القيام، لكنى سقطت قبل أن أقف مرتين، جاءتنى مال بملبوس وساعدتنى على ارتداءه كيفما اتفق، ونظرت طويلاً إلى الحلق الذهبى المدلّى من أذنى ونظرت إلى أمى وكأنها تقترح أن أخلعه، سرت بصعوبة خارجة من الغرفة بينما قدماى لا تقويان على حملى، فكرت أن أصرخ، أجرى، أحاول عدم الذهاب والإفلات، وأنبت نفسى نادمة لأنى لم أجهز سمًا أشربه وأرتاح مما أنا فيه وأوفّر على نفسى مثل هذه اللحظات.

ولكن كان الأوان قد فات.

قالت مال مخاطبة أمى:

ـ هل يسمحون لى بالذهاب معها. لا أريد أن أفارقها وهى ذاهبة إليهم ولا يصح ألا تكون حرمة معها وهى خارجة. سأقول لسيدى ذلك، وأستأذن منه مصاحبتها.

لم ترد أمى، وبقيت صامتة تنظرنى بذهول، مشيت بصعوبة وكأنى شليت فجأة، ولما صرت قرب الباب قامت من مطرحها وارتمت علىَّ وهى تمطرنى بالقبلات وتضمّنى بشدّة وتبكى وتنتحب.

فجأة ظهر أبى عند آخر الدهليز المطلة عليه حجرتى وحجرات أخرى، بينما كنت أتأهب لاجتيازه لنزول السلم، وقال بصوت غاضب مخنوق، وكأنما جاء ليستعجل حضورى بعد أن تأخرت عليه:

ـ خلاص. جهزت.

تمتمت بصعوبة.

ـ أنا جاهزة.

تقدمت أمى بسرعة وركعت عند قدميه وقالت:ـ

ـ أبوس رجلك يا سيدى الشيخ، اتشفع لها وخليهم يسامحوها لو عندك علم أن الشر نيتهم. لو كانوا ناويين على شر، أتركها ولا داعى تروح معك. سوف أبعدها وأهربها بعيد. تروح الحبشة مع مال

ولا ترجع فى يوم من الأيام. لم يرد. لم يطمئنها بكلمة واحدة. بقى جامدًا باردًا، ومنزعجًا ربما لأنهم جاءوا فى وقت لا يناسبه، فهو كان سيذهب لمجلسه بعد قليل. سالت دموع أمى على وجنتيها وسقطت على مركوبه، وتوسلت مال هاجمة لتقبيل يديه ورجليه وثوبه ومداسه، لكن كل ذلك لم يمنع خروجى معه والرجال إلى بيت الوزير.

ادخلونى إلى مجلس تجمع فيه رجال كثيرين وكانوا يتحدثون عن زوج هوى الذى خنقها بيديه بعد صلاة العصر. كان بعضهم مسرورًا جدًا، والبعض يثنى على فعلة الزوج، ويمتدح قدرته على مسايستها وإعطاءها الأمان حتى عادت إليه وهى مطمئنة، بينما كان يبيت هو النية على قتلها.

أخذ قلبى يدق دقات عنيفة لما سمعت هذا، وارتعشت يداى، وأنا أرى هؤلاء المجتمعين والذين بدوا فى عينى خلال تلك اللحظات وكأنهم كائنات مفترسة متوحشة على وشك الانقضاض علىّ، وليسوا رجال من البشر أخذوا يتفرّسون فى وكأنى دابّة غريبة ظهرت أمامهم فجأة وطلب أحدهم أن أخلع غطاء رأسى وأعرّيه، لكن الوزير رفض، وبدا أنه يخشى تهوّر بعضهم وهجومهم علىّ، أبى ظل صامتًا لا يكلم أحدًا، وعندما جاءوا بالقهوة والشبك له، لم يشرب ولم يدخن.

شعرت بجفاف لا حدّ له بحلقى، طلبت منهم بعض الماء لكنهم لم يعيروا مطلبى اهتمامًا، ثم أن بعض المشايخ أخذ بسؤالى عن صلتى ببونابرته وكيف بدأت وفى أى الأيام؟ كما سألونى عن كيفية

الذهاب إليه وكم مرة اختلى بى ببيت الألفى. وكنت أرد بصعوبة، وبصوت خفيض، لكنهم كانوا يطلبون منى تعلية صوتى وتكرار ما أسرده عليهم أحيانًا، وكانوا يتغامزون وأنا أتحدث ويعلقون على ما أقول بضحكات وقهقهات وتعليقات شنيعة، وقال واحد منهم:-

- لا أعرف ما الذى أعجبه فيها وهى نحيلة ممصوصة لا جمال ولا ظُرف فيها، كما لو كانت عرق خشب ناشف؟ ثم لما سألونى عن رأيى فيما كان بينى وبين بونابرته، فكرت أن أقول لهم، إننى أحببت طريقته فى معاملتى، ولم أشعر معه أبدًا بأننى مملوكة له، وأننى لم أحب بونابرته إلا لأنه أرانى أشياء لم أكن أراها من قبل، وأننى كرهت تسلطه هو وعسكره على الناس، وما فعلوه ببر مصر من تخريب ودمار، فبسببهم فارقت بر الأزبكية الجميل بعدما ضربوا بالقنبر كل مكان فى المحروسة، وأننى أكره كل ما جرى لنا من ذل وبهدلة بسبب بونابرته وعساكره..

لكنى لم أقل أى شىء من كل هذا ...

صمت قليلاً ثم قلت:

- أنى تبت من ذلك.

التفت الوزير بسرعة إلى أبى وقال:

- وما تقول أنت يا شيخ خليل؟

تطلعت إلى عينيه أستعطفه، كانتا باردتين بلا تعبير مثلما تعوّدت أن أراهما منذ أن وعيت وعرفت أن هذا الرجل أبى، وبدون أن يرف له جفن قال:

- إنى برىء منها.

فتحت فمى.. حاولت الصراخ دون جدوى.. لم أصدق أن هذا الرجل أبى الذى ظلت حياتى كلها تدور فى فلكه، وبيده أمرى ومعاشى ثم أنهم نادوا على المشاعلية فأخذونى إلى موضع حقير أسفل بيت الوزير وهناك تكاثروا علىّ وبعضهم تطاول على جسدى، ثم أنهم جذبوا ضفائرى ولفّوها حول رقبتى وأخذوا يجذبونها، ويجذبون.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

فى معركة إمبابة المعروفة بمعركة الأهرام، واجه جيش المماليك الجيش الفرنسى فى لحظة تاريخية ذات دلالة رمزية لا تخفى.

السيوف فى مواجهة البنادق، والبذخ الشرقى فى الملابس والمعدات أمام النزعة العملية الأوروبية فى كل تفاصيل الحياة.

غير أن المواجهة القيمية، كانت أخطر ما أحدثته الحملة الفرنسية على مصر، وهى مواجهة لم تخل من تراجيدية أحيانًا، ومواقف كوميدية ذات طابع ساخر فى أحيان أخرى.

وتتناول رواية الصفصاف والآس جانبًا من هذه المواجهة القيمية، التى عصفت بأرواح وخلقت بعض المآسى الإنسانية، والتى لم تغب عن شيخ مؤرخى الحملة وهو الجبرتى، فخلّدها بكلماته لتصبح مادة ثرية للإبداع الروائى والقصصى الجميل.

ISBN# 9789774216900
6 221149 019096
الهيئة المصرية العامة للكتاب
٥ جنيهات